

سُوتونغ



FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

زوجاتٌ ومحظياتٌ

妻妾成群

الترجمة عن الصينية: يارا المصري

رواية

BNUP

BNUP

سُوتونغ

زَوَاجَاتٌ وَمَحْظِيَّاتٌ

رواية

الترجمة عن الصينية: يارا المصري

SVIP

مسعين للنشر والتوزيع
Masra Publishing & Distribution

BNUP

الطبعة الأولى 2017

SU TONG

WIVES AND CONCUBINES

A NOVEL

TRANSLATED BY YARA EL MASRI

زَوَاجَاتُ وَمَحْظِيَّاتُ

سوتونغ: زوجات ومحظيات / رواية
الترجمة عن الصينية: يارا المصري

Wives and Concubines by Su Tong
Translated by Yara El Masri

妻妾成群 by 苏童

الطبعة الأولى - 2017

ISBN 978-1-988483-32-0

جميع الحقوق محفوظة

MASA

مسعى للنشر والتوزيع
Masa Publishing & Distribution

Ottawa, ON, Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

بالتعاون مع مجموعة النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين

BNUP

Arabic translation copyright © 2017 by Beijing Normal University
Press (Group) Co., Ltd. The translation is in collaboration with the
Beijing Normal University Press (Group) Co., Ltd.

ALL RIGHTS RESERVED

B&R Book Program

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية مما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

تصميم الغلاف: محمد النبهان

مصائرُ النساءِ في البئرِ الصينية

للبئر في التراث الإنساني دلالاتٌ متعددة، منها ما يتصلُّ بالماءِ حيث الحياة، وما يتصلُّ بالخوفِ من المجهول الذي قد ينتهي بالانتقامِ والعقابِ والموت، والدلالةُ الأخيرةُ هي ما يبني عليها سوتونغ روايته (زوجات ومحظيات) وهكذا تشكّل البئرُ خلفيّة المصائرِ الفادحة لأبطال هذه الرواية، وهنَّ نساءٌ حكم عليهن المجتمع الصيني الإقطاعي، في فترةِ أمراء الحرب الشماليين قبل الحرب الأهلية الصينية بالحياة تحت تقاليد قاسية.

يقول أحد القراء عن رواية (زوجات ومحظيات) إنها «قصة رجل دمر حياة مجموعة من النساء، وأوجد جيلاً من المآسي» وتحكي الرواية قصة سونغ ليان، وهي فتاة لم تكمل تعليمها الجامعي بعد وفاة والدها، اختارت أن تتزوج رجلاً يكبرها في السن وتكون محظيةً لرجلٍ في عائلة إقطاعية تقليدية. وتكشف أحداث الرواية عن الصورة المرعبة لعادات الصين الإقطاعية حينها والتي قضت على إنسانية البشر وعطفهم على الآخر. كما تكشف الرواية في جانب آخر عن المكائد والصراعات الخفية

منها والظاهرة التي تدور بين النساء عادة في وضع اجتماعي كالوضع الذي تطرحه الرواية. وإذ يبدو الموضوع الرئيس التي تعالجه الرواية موضوعاً تقليدياً وسبق طرحه من قبل، إلا أن أسلوب سوتونغ الذي يعتمد في أكثره على الاستعارات والمجازات، قد أكسب مناخ العمل شيئاً من الغموض والكآبة، كما أكسب سرده قوة وسلاسة. وتظهر باحة المنزل وحديقته الخلفية منصّة للأحداث ومركزاً للمجازات التي تكشف عنها البئر في ارتباطها بحياة ساكني البيت، فعريشة الوستاريا هناك، وهناك غنت مِي شان الأوبرا، وبئر الموتى هناك - حيث بدأت الرواية من البئر، وانتهت إليها، كما أنها رمز البنية النفسية للشخصيات.

نشرت الرواية عام 1991، وحولت إلى فيلم بعنوان (ارفعوا المصابيح الحُمْر) في العام ذاته من إخراج جانغ ييمو، والذي رشح بدوره إلى جائزة الأوسكار في دورتها الرابعة والستين. كما أدرجت الرواية ضمن قائمة أفضل مائة رواية صينية في القرن العشرين. وتتنمي الرواية إلى تيار الأدب الطليعي، وهي حركة أدبية ظهرت في ثمانينات القرن العشرين، وكان من أبرز روادها، ما يوان، ويوهوا، سوتونغ، وتسان تشيوي وغيرهم من الكتاب الذين كانوا قد أقبلوا بعد التحرر من قبضة الثورة الثقافية وعصابة الأربعة على التجريب وخلق أشكال إبداعية جديدة متأثرين بالأدب العالمي، كما تحافظ الرواية في الوقت ذاته على عناصر الرواية الصينية بما فيها من موروث شعبي واجتماعي وثقافي، حيث تظهر الأوبرا الصينية التقليدية وبعض العادات الصينية في هذه الرواية.

ولد سوتونغ في شهر يناير - كانون الثاني عام 1963، في مقاطعة

جيانغسو جنوب الصين. وفي عام 1980 التحق بقسم اللغة الصينية بجامعة المعلمين في بكين ودرس هناك. وبدأ الكتابة عام 1983. ويعمل الآن نائب رئيس رابطة الكتاب الصينيين التابعة لمقاطعة جيانغسو، وكاتباً متفرغاً للكتابة والتأليف في رابطة الكتاب الصينيين التابعة لمقاطعة جيانغسو. وقد حازت أعمال سوتونغ على جوائز عدّة، منها جائزة البوكر الآسيوية في دورتها الثالثة عام 2009 عن روايته الطويلة (قارب الخلاص). وحصل أيضاً على جائزة لوشون الأدبية في دورتها الخامسة عام 2010، وهي واحدة من أرفع وأكبر الجوائز الأدبية في الصين، كما حاز على جائزة يو دافو الأدبية عام 2012، وجائزة ماو دون الأدبية في دورتها التاسعة عام 2015 عن روايته (حكاية الطائر الأصفر).

يارا المصري

سُوتونغ

زَوَاجَاتٌ وَمَحَظِّيَّاتٌ

رواية

الترجمة عن الصينية: يارا المصري

(1)

كانت الزوجةُ الرابعةُ سونغ ليان في التاسعةَ عشرَ من عمرِها حينما حُملت في الهودج إلى حديقةِ منزلِ السيد تشين، حيث كانت الخادما تُتغسلن الصوفَ القديم إلى جانبِ البئر. وصلت وقتَ المغربِ إلى البابِ الخلفي من الناحيةِ الغربيةِ للحديقة في هودجٍ يحمله أربعةُ ريفيين، أدخلوه على مهلٍ من بوابةِ القمر. ورأت الخادما طالبةً ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة سوداء تترجّلُ من الهودج، وظنن أن الابنةَ الكبرى التي تدرسُ في جامعة بي بينغ⁽¹⁾ قد عادت، وإذ ذهبن لتحيّتها، لم يجدن إلا طالبةً ذاتَ وجهٍ مغرٍ مُتعب. وفي ذلك العام أبقت سونغ ليان على شعرها قصيراً إلى أذنها، وربطته بشریط ساتان أزرق فاتح. كان وجهُها مستديراً، بدون ماكياج، وشاحباً.

نزلت سونغ ليان من الهودج، ووقفت على الأرضِ المُعشبة تنظرُ بحيرةَ حولها، وإلى جانبِها حقيبةٌ من الخيزران. وقد امتدَّ ظلُّها نحيفاً في ضوءِ شمسِ الخريفِ الغاربة، جامداً، هشاً كورقةٍ ساكنة. رفعت ذراعها ومسحت وجهها المتعرقَ بكمِ بلوزتها، وانتبهت الخادما إلى أنّها لم

1. الاسم السابق لمدينة بكين

تستعمل منديلاً، مما خَلَفَ لديهن انطباعاً عميقاً.

سارت سونغ ليان إلى البئر وتحدّثت إلى يان أر التي تغسل الصوف: «أريد أن أغسل وجهي، لم أغسله منذ ثلاثة أيام.» رفعت لها يان أر دلوأ، وراقبت سونغ ليان وهي تنقع وجهها في الماء، كان جسدها يرتجف بسكون، ومنحنياً وكأَنَّها تلقت ضربةً في خصرها. سألتها يان أر: «هل تريدان صابوناً؟» لم ترد سونغ ليان، فسألتها يان أر مرة أخرى: «أليس الماء بارداً جداً؟» لم ترد سونغ ليان كذلك، فغمزت يان أر إلى الخادמות، وكتمت ضحكتها. وحمّنت الخادماتُ أنّها إحدى قريباتِ عائلة تشين الفقيرات، فهنَّ يعرفن تقريباً جميع الضيوف الذين يأتون وهوياتهم. في تلك اللحظة التفتت سونغ ليان فجأة، واكتسى وجهها المغسول بفتور وبرودٍ ظاهرين، وتقوّس حاجباها الرفيعان شديداً السواد شيئاً فشيئاً. رمقت سونغ ليان يان أر بنظرةٍ وقالت: «ما بكِ تضحكين ببلاهة، لم لا تسكين الماء؟» ظلّت يان أر تضحك وقالت: «مَنْ أنتِ، لم لهجتك حادة؟» دفعتها سونغ ليان دفعةً قوية، وحملت حقيبتها وغادرت البئر، ثم التفتت بعد خطواتٍ وقالت: «ستعرفن عاجلاً أم آجلاً مَنْ أكون.»

في اليوم التالي عرف الجميع في المنزل أنّ السيد تشين زوي تشيان اختارَ سونغ ليان زوجةً رابعة، وأسكنها في الجناح الغربي من الحديقة الخلفية، قريباً من الزوجة الثالثة مي شان. واختارَ يان أر التي تسكنُ في مضجع الخدم خادمةً لها.

كان الخوفُ يدبُّ في أوصالِ الخادمة حين ذهبت إلى سونغ ليان في اليوم التالي، خافضةً رأسها وهي تنادياها بالزوجة الرابعة، ولكن سونغ

ليان كانت قد نسيت ما حدث بينهما، أو لم تتذكر من هي يان أر. في ذلك اليوم ارتدت سونغ ليان تشياو حريراً بلونٍ وردي، وخفّين مطرّزين، واستعاد وجهها رونقه بين عشية وضحاها، وبدت أكثرَ لطفاً. سحبت يان أر إلى جانبها، وشرعت تتفحصها، ثم قالت لتشين زوي تشيان: «حَسَنٌ إنها لا تبدو مزعجة». ثم وجهت كلامها إلى يان أر: «اجلسي القرفصاء، أريد أن أرى شعرك». قرفصت يان أر وشعرت بيد سونغ ليان تفلّي شعرها، وكأنها تبحث عن شيء ما، بعد ذلك سمعتها تقول: «شعرك نظيفٌ من القمل، أكثر ما أخافه هو القمل». عَضَّت يان أر على شفيتها ولم تنطق بحرف، وشعرت أن يد سونغ ليان كحدّ سكينٍ باردةٍ تقطعُ شعرها، وتؤلّمها. ثم أردفت سونغ ليان: «ما هذه الرائحةُ الكريهةُ للغاية التي تفوحُ من شعرك؟ اذهبي واغسليه بالصابون». نهضت يان أر، ووقفت جامدة مسبلة الذراعين. حلق تشين زوي تشيان فيها بغضب وقال: «ألم تسمعي ما قالته الزوجةُ الرابعة؟» ردّت يان أر: «غسلته البارحة». صرخ تشين زوي تشيان: «كفى هراء، حين تطلب منك غسل شعرك اذهبي واغسليه على الفور، احذري أن أضربك».

ملأت يان أر طستَ ماءٍ وغسلت شعرها أسفل شجرة تفاح، غسلته وهي تشعرُ بالمهانة، وفي قلبها يقبعُ كُرهُ كَثَقِلٍ حديدي. كانت أشعةُ شمسٍ ما بعد الظهيرة تنعكسُ على شجرتي تفاح، وثمة حبلٌ غسيلٍ معلقٌ على غصني شجرة، وبلوزة الزوجة الرابعة سونغ ليان البيضاء وتنورتها السوداء تتمايلان مع النسيم. نظرت يان أر حولها، وكانت الحديقةُ الخلفيةُ خاليةً من أيِّ إنسان، فسارت إلى حبلِ الغسيل، وبصقت على البلوزة البيضاء، ثم بصقت كذلك على التنورة السوداء.

كان تشين زوي تشيان قد تحطى الخمسين هذا العام. واختار سونغ ليان لتكون محظية، وتم الأمر في سرية بعض الشيء. وحتى قبل يوم من وصول سونغ ليان إلى المنزل، لم تكن الزوجة الأولى شو رو تعلم بما يجري. كانت شو رو في المصلى البوذي العائلي تُسبح على المسبحة البوذية حين اصطحب تشين زوي تشيان سونغ ليان لزيارتها، قال: «هذه الزوجة الأولى.» وإذ تقدمت سونغ ليان لإلقاء التحية، انفرطت المسبحة وتدرجت حباًتها على الأرض، فدفعت شو رو كرسي الخشب الأحمر لتجمعها، وحال لسانها يتمم: «خطيئة، خطيئة.» تقدمت سونغ ليان لمساعدتها، ولكن شو رو دفعتها بهدوء قائلة: «خطيئة، خطيئة.» ولم تنظر إليها. تأملت سونغ ليان جسد شو رو البدين وهو يطفو على الأرض الرطبة لتلتقط حبات المسبحة، ووضعت يدها على فيها وضحكت ضحكة مكتومة، ثم نظرت إلى تشين زوي تشيان الذي قال: «حسن، لنذهب.» وما أن وطأت سونغ ليان عتبة الباب، حتى استندت على ذراع تشين زوي تشيان وقالت: «كم عمرها؟ مائة عام! يا لها من عجوز!» لم يرد تشين زوي تشيان، فسألته: «هل هي بوذية؟ كيف لها أن تتعبد في المنزل؟» أجاب تشين زوي تشيان، «أي بوذية، ليس لديها ما تفعله، تتظاهر ليس إلا.»

استقبلت الزوجة الثانية جوه يون سونغ ليان استقبالاً حاراً. وطلبت من الخادمة تقديم بذور البطيخ وعباد الشمس، والبذر الأبيض، وأنواعاً مختلفة من المرببات لضيافتها. وتحدثت جوه يون عن البذر ما أن جلسوا قائلة: إنه لا يوجد بذر هنا، وإنها ترسل شخصاً ليشتريه لها من سوجو.

وأمضت سونغ ليان النهارَ في قضم البذر إلى أن ضجرت، فهي لا تحب هذه المسليّات، وقد بدا عليها ذلك. أشارت إلى تشين زوي تشيان خفية، ولمّحت له برغبتها في المغادرة، ولكنه تعمّد البقاء لدى جوه يون بعض الوقت، متجاهلاً نظرة سونغ ليان. ولهذا حتمت أنه يجب ويدلل جوه يون، وبلا وعيٍ منها تركت نظراتها تتفحص وجه جوه يون وجسدها. كانت ذات ملامح لطيفة مليحة، على الرغم من أنها لم تستطع إخفاء التجاعيد الدقيقة والبشرة المترهلة، ولكن سلوكها كان ينم عن سلوك سيدة راقية. فكّرت سونغ ليان، امرأة كجوه يون من السهل أن يحبّها الرجال، ولن تكرهها النساء كذلك. ولهذا نادتها سونغ ليان على الفور بأختي الكبيرة.

كانت مي شان هي الأقرب لسونغ ليان، ولكنها كانت آخر من زارت. وقد سمعت سونغ ليان عن جمال مي شان الخلاب، وأرادت أن تقابلها بشدة، ولكن تشين زوي تشيان لم يوافق.

- إنها قريبة، اذهبي بمفردك.

- ذهبتُ بالفعل، ولكن الخادمة أخبرتني أنّها مريضة، ولم تدعني أدخل.

شخّر تشين زوي تشيان وقال: «تتدرّع بالمرض دائماً ما لم تكن راضيةً وسعيدة. تريد أن تكون لها اليد العليا.»

- هل ستدعها؟

أشاح بيده وقال: «لا تظني أنّ هذا ممكن، لن تكون للنساء اليد العليا أبداً.»

اتجهت سونغ ليان إلى الجناح الشمالي، ورأت ستارة مبي شان المطرزة⁽¹⁾ ذات اللون الوردى، وشمت من غرفتها عطرَ زهرة ما. وقفت سونغ ليان أمام النافذة برهة، وفجأة أزاحت الستارة بخفة، تدفعها رغبة عارمة لم تستطع التحكم بها، وجعلها هذا تنتفض من الملح حتى كادت روحها تخرج منها، فقد كانت مبي شان تنظر إليها كذلك من وراء الستارة، تلاقت النظرات لحظة، ثم فرّت سونغ ليان مذعورة.

حلّ الليل، وجاء تشين زوي تشيان للمبيت في غرفة سونغ ليان. ساعدته في تغيير ملبسه ليرتدي ملابس النوم، ولكنه قال: «لا أريد أن ارتدي شيئاً، أحبّ النوم عارياً.» أشاحت سونغ ليان ببصرها بعيداً، وقالت: «كما تشاء، ولكن من الأفضل أن ترتدي ملابسك، حتى لا تُصاب بالبرد.» ضحك تشين زوي تشيان: «لست خائفة عليّ من الإصابة بالبرد، أنت خائفة من رؤية مؤخرتي العارية.» قالت سونغ ليان: «لست خائفة.» كانت وجنتاها متضربتين حين أشاحت وجهها. هذه المرة الأولى التي تواجه فيها جسد تشين زوي تشيان الذي يشبه الكركي، كان طويلاً ونحيفاً، وعضوه مشدوداً كالقوس. أحسّت سونغ ليان بأنفاسها متقطعة قليلاً، وقالت: «لم أنت شديد النحافة؟» صعد تشين زوي تشيان السرير، ودسّ نفسه داخل الغطاء الحريري قائلاً: «هيا، لنجعلها يجتمعاً.»

استدرات سونغ ليان لتطفئ المصباح، ولكنه منعها قائلاً: «لا تطفئي، أريد أن أراك.» تحسّست وجهه بلطف وقالت: «كما تشاء، أنا لا أعرف أيّ شيء على كلّ حال، سأفعل ما تريد.»

1. شدّ خيوط النسيج واستخدامها لتشكيل أنماط تشبه الدانتيل.

كانت سونغ ليان أشبه بمن سقط من مكان مرتفع إلى هوةٍ سحيقةٍ مُعتمة، وشعرت بألمٍ ودوارٍ مع إحساسها بالاسترخاء. والعجيبُ في الأمر أنَّ وجهَ مي شان كان يطفو في مخيلتها طوال الوقت. ذلك الوجه الجميل الذي لا مثيلَ له، الغائبُ في العتمة. قالت سونغ ليان: «إنَّها عجيبة».

- عمَّن تتحدثين؟

- الزوجة الثالثة، كانت تراقبني من خلف الستارة.

رفع تشين زوي تشيان يده من على صدرها إلى شفيتها: «لا تتحدثي، لا تتحدثي الآن.» وفي تلك اللحظة سمعا صوت طرقتين خفيفتين. فزع الإثنان، وأشار لها تشين زوي تشيان، فأطفأت النور. وبعد برهة، طرَّق الباب مرَّةً أخرى... قفز تشين زوي تشيان، وصرخ بغضب:

«مَن الطارق؟» وسمع صوت فتاةٍ خجولٍ من وراء الباب تقول:

«الزوجةُ الثالثةُ مريضة، وتريد أن ترى سيدي.» رد تشين زوي تشيان: «كذب، كذب مرَّةً أخرى، أخبريها أني نائم.»

قالت الفتاة: «إنَّها مريضةٌ مرضاً شديداً، يجب أن تراها. تقول إنَّها على وشك الموت.» جلس تشين زوي تشيان على السرير وفكَّر برهة وهو يحدثُ نفسه قائلاً: لقد عادت إلى ألعيبها. رآته سونغ ليان في حالته المغمومة تلك، فدفعته دفعةً وقالت: «اذهب، إذا ماتت بالفعل فسيكون الأمرُ سيئاً.»

لم يعد تشين زوي تشيان تلك الليلة. أرهفت سونغ ليان السمعَ إلى الأصواتِ في الجناحِ الشمالي، وبدا أنَّه لم يقع شيء. ولم يكن هناك سوى

أصواتٍ تغريدٍ طيورٍ على شجرِ الرمان، ترك صدى موحشاً بعيداً. أصابها الأرق، والتخبطُ بين خيبةِ الألمِ والحزن، وفي اليوم التالي حين كانت تستعد للترزين، اكتشفت تغيراً عميقاً في وجهها، كان ثمة هالتان سوداوان مزرقَّتَان أسفل عينيها. وكانت قد عرفت ماذا أصاب مي شان، ولكن عندما رأت تشين زوي تشيان خارجاً من الجناح الشمالي، ذهبت لتحتيته وسألته عن حالتها: «هل أحضرت لها الطيب؟» أو ما تشين زوي تشيان برأسه مُحرجاً، وبدا وجهه متعباً، ويتحدث بثاقل، وقرص يدها قرصةً خفيفة.

درست سونغ ليان في الجامعة سنةً واحدةً ومن ثم تزوّجت تشين زوي تشيان، وكان السببُ بسيطاً، لقد أفلس مصنعُ الشاي الذي يديره والدها، ولم تستطع دفعَ مصاريفِ الدراسة. وفي اليوم الثالث بعد عودتها إلى المنزل وتركها الدراسة، سمعت ضجيجاً وصياحاً في المطبخ، فهرولت لتجدَ والدها ممدداً إلى جانبِ البركةِ التي اختلطَ ماؤها بالدم وطففت فقاعاتٌ على سطحه. لقد قطعَ والدها رُسعَه، وانتقلَ بسلامٍ إلى الحياةِ الأخرى. تذكُرُ سونغ ليان شعورَ اليأسِ الذي تملكها ذلك الحين حينما عدلت وضعيّةَ جسدِ والدها البارد، وكان جسدها أكثر برودةً من جثته، وظلّت متماسكة حتى أنّها لم تذرف دمعاً واحدةً. ولعدة أيام لم يقترب أحدٌ من هذه البركة، لكن سونغ ليان استمرت في غسلِ شعرها هناك، بدون أن تشعر كباقي الصبايا بالخوفِ والذعرِ الذي لا جدوى منه. كانت واقعيةً للغاية، وكانت تدرك أنه لا مناص من أن تتولى مسؤوليةَ نفسها بعد وفاة والدها.

كانت تمشط شعرها بروية إلى جانب البركة، وتستغل لحظات الهدوء والسكينة للتفكير في حياتها القادمة، وحين خيرتها زوجة والدها بين العمل أو الزواج، ردت ببرود، الزواج بالطبع. فسألتها: «هل تريدان أن تتزوجي شخصاً متوسط المستوى أم غنياً؟» ردت سونغ ليان: «شخصاً غنياً، هل يحتاج هذا إلى سؤال؟» فردت زوجة والدها: «حسن، سيكون الأمر مختلفاً، إذا تزوجت رجلاً غنياً فلن تكوني زوجة». ماذا تعنين؟ فكرت زوجة والدها وقالت: «ستكونين محظية، مكانة مهينة إلى حد ما». ابتسمت سونغ ليان بفتور: «ماذا تعني مكانة الشخص؟ هل شخص مثلي يفكر بهذه الأمور؟ على كل حال لقد فوّضت لك الأمر، وإذا كنت تهتمين بعلاقتك الطيبة مع والدي، فاختراري لي شخصاً جيداً.»

حينما ذهب تشين زوي تشيان في المرة الأولى ليراها، كانت مخبئة خلف الباب، ورمت له بجملته واحدة، أن يذهب إلى مطعم غربي. وخطر بباله أنها ستكون مختلفة باعتبارها طالبة جامعية. حجز مقعدين في المطعم، وانتظر وصولها. كان المطر يهطل في ذلك اليوم، وتشين زوي تشيان يتطلع إلى حباته تبلل الشارع، وفواده مفعم بالفضول والذفء، كان زواجه هذه المرة مختلفاً عن المرات الثلاث السابقة. وحين وصلت سونغ ليان وهي تحمل مظلتها المطرزة، ابتسم تشين زوي تشيان فرحاً، كان مظهرها جميلاً نظيفاً كما تخيلها، وشابة كما تخيلها كذلك. يذكر تشين زوي تشيان حين جلست سونغ ليان أمامه، أخرجت كيس شموع صغيرة، وهمس قائلة: «أريد كعكة.» فطلب من النادل أن يحضر كعكة، ثم شاهدتها وهي تغرس الشموع في الكعكة شمعة شمعة، فكان المجموع تسع عشرة شمعة،

وأعادت الباقي إلى الكيس. قال تشين زوي تشيان: «ما هذا، هل اليوم عيد ميلادك؟» ابتسمت سونغ ليان فحسب، وأشعلت الشموع، ونظرت إلى هيبها الخفيف المتصاعد. بدا وجهها في ضوء الشموع جميلاً، ثم قالت: «أنظر إلى هذه الشعلة كم هي ظريفة.» رد تشين زوي تشيان: «ظريفة حقاً» بعدها أخذت سونغ ليان نفساً وأطفأت الشموع وقالت: «أحتفل بعيد ميلادي سلفاً، وبهذا أكون أتممت التاسعة عشر عاماً.»

أحس تشين زوي تشيان بمغزى ما في كلامها، ومن حينها كان يتذكّر دائماً مشهد إطفائها للشموع، وأحس أنها مفعمة بقوة ما غامضة وساحرة. وباعتباره رجلاً غنياً له تجارب مع النساء، فإن أكثر ما سحره فيها كان حميميتها وفطنتها أثناء ممارستها الحب. وبدا أنه اكتشف سحرها منذ أن رآها لأول مرة، وما تبع ذلك أكد اكتشافه. وكان من الصعب معرفة إذا ما كانت هذه طبيعة سونغ ليان أم أنها تفضل المغازلة والتدليل، ورغم ذلك كان راضياً. وقد كان حبه وتدليله لسونغ ليان واضحاً للجميع في المنزل.

(2)

ثمة عريشة وستاريا في زاوية سور الحديقة الخلفية، مُثقلة بزهورها المتفتحة طوال العام. ترى سونغ ليان عبر نافذتها تلك الورود البنفسجية تتمايل مع نسيم الخريف، تتمايل بخفة كل يوم. وتنتبه إلى أن بئراً هناك، أسفل العريشة، وكرسیاً ومائدة حجريان، ويبدو الموقع مكاناً يمكن للمرء أن يستريح فيه بعيداً عن الناس، وكان المرء الذي يُفزي إلى البئر مغطى بالحشائش الطويلة.

كانت الفراشات تملق، وزيز الحصاد يُشدُّ على أغصان الوستاريا، وتذكّرت سونغ ليان أنّها في هذا الوقت من العام الماضي كانت تجلس تحت عريشة الوستاريا في الجامعة تقرأ الكتب، كان كل شيء أشبه بحلم. سارت سونغ ليان بروية، ورفعت تنورتها، أزاحت الأغصان بهدوء وحذر حتى لا تلمس الحشائش والحشرات، ورأت تلك المائدة والكرسي يغطيهما التراب. خَطَّت إلى البئر التي نمت على فتحها الحجرية طحالب طويلة، وانحنت ناظرة إلى مائها الأزرق المُسود، الذي تطفو على سطحه أوراق شجر ذابلة. شاهدت سونغ ليان انعكاس وجهها يرتعش على سطح الماء، وأحسّت بصوت أنفاسها يتردد داخل البئر، ثقيلًا وضعيفًا.

في تلك اللحظة هبت ريحٌ رفعت تنورتها بسرعةٍ خاطفة، وأحسَّت برودةٍ شديدة، كحجرٍ يدقُّ جسدها ببطء. ركضت سونغ ليان عائدة، ركضت مُسرِّعةً، ولم تهدأ نفسها إلا حين وصلت إلى الجناح الجنوبي. وإذا التفتت لتتنظرَ إلى العريشة مجدداً، تساقطت فجأة وردتان أو ثلاثُ وردات، وشعرت سونغ ليان أن هذا أمرٌ عجيب.

كانت جوه يون تنتظرُ في غرفةِ سونغ ليان. وانتبهت في الحال أن سونغ ليان تبدو شاحبة، فأسندتها من خصرها وسألتها: «ما بك؟» ردَّت سونغ ليان: «ما بي؟ كنت أتمشى في الحديقة.» قالت جوه يون: «تبدين شاحبة.» ضحكت وقالت إنَّها في فترةِ الحيض. ضحكت جوه يون أيضاً قائلة: «لهذا السبب قضى السيد ليلته عندي مجدداً.» ثم فتحت كيساً ورقياً وأخرجت منه لفافةً حريرٍ وقالت: «حرير سوجو، هديةٌ لك لتفصلي ثوباً.» دفعت سونغ ليان يدها وقالت: «لا يصح، إنك تُحجليني، لا بد أن أهديك أنا هدية.» أسكتتها جوه يون وقالت: «أيُّ منطقي هذا؟ إنَّ رؤيتك تفرحني للغاية، وتذكَّرت لفافةَ الحرير، لم أكن لأعطيها للمرأة التي تسكن بجانبني حتى لو دفعت مالاً، هذا طبيعي.» أخذت سونغ ليان اللفافة ووضعتها على ركبتيها وتحسَّست ملمسها، وقالت: «إنَّ الزوجةَ الثالثة غريبةٌ بعض الشيء فعلاً، ولكنها جميلةٌ للغاية.» قالت جوه يون: «أيُّ جمال؟ وجهها مَطْلِي بالمساحيق.» ضحكت سونغ ليان، وغَيَّرت الموضوع.

- أمضيتُ بعض الوقت عند عريشةِ الوستاريا منذ قليل، أحبيتُ المكانَ هناك.

صرخت جوه يون: «هل ذهبِ إلى بئرِ الموتى؟ لا تذهبي هناك، إنه

ذهلت سونغ ليان وسألتها: «لماذا تُسمّى بئرُ الموتى؟»

ردّت جوه يون: «لا عجب أنكِ بدوتِ شاحبة حين وصلتِ، لقد مات ثلاثة أشخاصٍ هناك.» استندت سونغ ليان على حافةِ النافذة وتطلّعت إلى العريشة وكرّرت سؤالها:

- من مات هناك؟

- زوجاتٌ من الجيل السابق.

أرادت سونغ ليان أن تسمع المزيد، ولكن جوه يون رفضت أن تحكي، لم تكن تعرفُ الكثيرَ عن الأمر، وقالت إن عائلة تشين تُحرّم الحديث فيه، والجميع متكتّمٌ آخرسُ كالزجاجة المغلقة. ظلّت سونغ ليان ذاهلة برهة، ثم قالت: «حسنٌ، لا يهم أن نعرفَ هذه الأمور.»

كان أولادُ وبناتُ عائلة تشين يسكنون الدارَ الوسطى، وقد رأت سونغ ليان من قبل بي رونغ وبي يون ينبشان الطينَ بحثاً عن ديدانِ الأرض، كان مظهرهما مبهجاً، بريئاً وساذجاً، ومن نظرةٍ واحدة عرفت سونغ ليان أنّهما ابنتا جوه يون. وقفت جانباً تراقبهما خفيةً، لكنها انتبهتا إليها، فتجاهلتا وجودها، واستمرت في التقاطِ ديدانِ الأرض ووضعها في أسطوانةٍ بامبو صغيرة.

سألتهما سونغ ليان: «لماذا تبحثان عن ديدانِ الأرض؟»

قالت بي رونغ: «لصيد السمك.»

ونظرت بي يون إلى سونغ ليان بوقاحة وقالت: «ليس شأنك.»
بدا على سونغ ليان شيءٌ من الملل، وإذ سارت بضع خطوات، سمعت
الأختان تهمسان: «إنها محظية، مثل أمنا.» بهت سونغ ليان بغتة، ورمقتها
بنظرة مفعمة بالسخط، فضحكت بي رونغ، وزمت بي يون شفيتها،
وغمغمت بشيءٍ ما. فكرت سونغ ليان: «ما هذا؟ وكيف للأطفالِ
الصغارِ أن يتحدثوا للكبار بهذا الأسلوبِ غير المهذب؟ السماءُ وحدها
تعلم كيف تربِّي جوه يون هاتين الأختين.»

حين قابلت سونغ ليان جوه يون مرّةً أخرى، لم تستطع تمالك نفسها
وأخبرتها بما بدر من بي يون. قالت جوه يون: «هذه الطفلة طويلة اللسان،
سأؤدّبها.» وبعد أن اعتذرت لها أكملت: «في الحقيقة إنَّ ابنتي بعيدتان
عن المشاكل، فأنتِ لم تربي الطفلَ المجاورَ لي، يشبه الكلبَ الذي ما أن
يرى أحداً يعصّه، ويبصقُ عليه. هل عصّك من قبل؟» هزّت سونغ ليان
رأسها، وتذكّرت الصبي في لان. كان يقف عند المدخل، يقضم فطيرة،
وينظرُ إليها، شعره لامعٌ ومصفّفٌ بعناية، ويرتدي حذاءً جلدياً أسود،
وأحياناً كانت سونغ ليان ترى شيئاً من ملامح تشين زوي تشيان في وجه
الصبي، وكانت تتقبّلُ في لان، ربما لأنّها تتمنى أن تنجبَ صبيّاً لتشين
زوي تشيان. الأولاد أفضلُ من البنات، أكانوا يعصّون الناسَ أم لا.
فكّرت سونغ ليان.

مضى وقتٌ طويلٌ لم تر فيه سونغ ليان ابن وابنةً شورو، كان واضحاً
أنّ لهما مكانةً عاليةً في منزلِ عائلة تشين. كانت سونغ ليان تسمع دائماً عن
في بو وي هوي. كان في بو يعمل في المحاسبة والعقارات، وكانت بي

هوي تدرس في كلية بكين للنبات. وسألت سونغ ليان يان أر عرضاً عن فيّ بو، فقالت: «إن سيدنا رجلٌ مقتدرٌ وكفاء». سألت سونغ ليان: «كيف هذا؟» أجابت يان أر: «هو كفاءٌ وفطنٌ على كلِّ حال، وتعتمد عليه عائلةُ تشين الآن.» فسألتها سونغ ليان: «وكيف هي السيدةُ الصغيرة؟» قالت يان أر: «إنَّ سيدتنا الصغيرة جميلةٌ وأنيقة، وستزوج رجلاً غنياً فيما بعد.» ضحكت سونغ ليان في سرها، وقد جعلتها نبرةُ يان أر في مدحِ هذا وذمِّ ذلك تشعرُ بالحنق الشديد، فصبَّت غضبها على القط الشيرازي الذي يقعي أسفل تنورتها، ركلته ركلة، وشمته قائلة: «أيها الوضع، ماذا تلعق!»

كانت كراهيةُ سونغ ليان ليان أر تزدادُ يوماً بعد يوم، كان السبب الرئيس هو أنَّ يان أر دائماً ما تذهبُ إلى جناحِ مي شان، كما أنَّها تبدو دائماً غيرَ راضيةٍ كلما أتت لتجمعَ ملابسَ سونغ ليان الداخلية وتغسلها. وكانت سونغ ليان توبِّخها أحياناً: «لماذا يبدو عليكِ الاستياء، إن لم ترغبي في خدمتي اذهبي إلى غرفتك، أو اذهبي إلى الزوجةِ المجاورة، لا يهم.» فندافع يان أر عن نفسها: «لستُ مستاءة، كيف أجرو، إنَّ ملامحَ وجهي هكذا ليس إلّا.» حينها ترميها بمشط، فتوقف يان أر عن الكلام. وخمَّنت سونغ ليان أنَّ يان أر تتحدَّثُ عنها بكلامٍ سيءٍ طوال الوقت، وليس بمقدورها أن تعاملها بشراسةٍ أكبر، لأنَّها رأت تشين زوي تشيان في إحدى المرَّات يدخل الغرفة مستغلاً وجودَ يان أر ويداعبُ صدرها، وعلى الرغم من أنَّ المداعبةَ حدثت بشكلٍ خاطفٍ وكأنَّها لمسةٌ غيرُ مقصودة، إلَّا أنَّ سونغ ليان لم تملك غيرَ السيطرة على نفسها وكسرتِ حديثها، وإلَّا لم تكن يان أر لتعامل معها بهذه الوقاحة. فكَّرت سونغ ليان، حتى

الخدامة تعتمدُ على هذه اللمسة لتقوي نفسها، هكذا هُنَّ النساء.

وفي اليوم السابق لعيد التاسع المزدوج⁽¹⁾، عاد السيد في بو إلى المنزل.

كانت سونغ ليان حينها في الباحة الوسطى تستمتعُ بزهور الأقحوان حين رأت شو رو والخدم متجمعين حول ثلَّة رجالٍ بينهم شابٌ يرتدي بدلة بيضاء، وقامته تبدو من بعيد طويلةً ضخمة، وخمَّت سونغ ليان أنَّه في بو. رأت الخدم يتراخضون ويحملون الحقائب إلى الباحة الخلفية ويدخلون المنزل، ودخلت سونغ ليان كذلك وهي محرجة. قطفت زهرةً أقحوان، وبخطواتٍ وثيدة اتجهت إلى الحديقة الخلفية، وفي الطريق رأت جوه يون ومي شان تسيران نحو المنزل وقد اصطحبت كلُّ منهما أطفالها. سحبت جوه يون سونغ ليان وقالت: «لقد عاد السيد، ألن تذهبي لترية؟» ردت سونغ ليان باستنكار: «أذهب لأراه؟ يجب عليه أن يأتي هو ليراني.» ردَّت جوه يون: «هذا صحيح، يجب أن يأتي أولاً ليراك.» وكانت مي شان التي تسيرُ إلى جانبها تربتُ بنفادٍ صبرٍ على رأسٍ في لان وتحضُّه: «امش بسرعة، امش بسرعة.»

التقت سونغ ليان في بو على مائدة الطعام. وفي ذلك اليوم طلب تشين زوي تشيان من الطاهي أن يُعدَّ مأدبةً فخمةً للترحيب بـ في بو، وقد ضمَّت المائدة أشهى المأكولات المعدةً بأساليبٍ أنيقةٍ ولذيذة. تمعنت سونغ ليان في المأدبة، تاركةً نفسها تتذكَّرُ لا إرادياً يومَ وصولها إلى منزلٍ

1. عيد من الأعياد التقليدية الصينية، وقد خصَّصته الصين في ثمانينات القرن العشرين عيداً لكبار السن. ومن أهم عادات الصينيين في هذا اليوم تسلق المرتفعات، والتمتع بزهور الأقحوان، وشرب خمر مصنوعة من هذه الزهور وغرس نبات العقيق الأحمر وتناول كعكة زهر الأقحوان.

تشرين، لم تكن المأذبة حينها كتلك المعدّة له، وشعرت بشيء الغيرة، إلا أنّ تركيزها تحوّل بغتة إلى فيّ بو. كان جالساً إلى جانب شورو، التي همست له بأمرٍ ما، فنهض قليلاً عن مقعده وأوماً برأسه إلى سونغ ليان مبتسماً، فأومات سونغ ليان برأسها مبتسمةً أيضاً. كان الانطباعان اللذان كونتهما عن فيّ بو أنه وسيمٌ وشابٌ بشكلٍ فاق توقعهما، والانطباع الثاني أنه ذكيٌّ فطنٌ. كانت اجتماعية تحبُّ التعرّف على الناس.

في اليوم التالي وكان أوّل أيام عيد التاسع مزدوج، جمع البستاني زهور الأقحوان في باقات، وقصّ الزهورَ مختلفة الألوان على شكل كلمات: حُسنُ الطالع، الثروة، العمرُ المديد، السعادة. استيقظت سونغ ليان مبكراً، ومضت تدور حول زهور الأقحوان وتتأملها، كان نسيمُ الصباح بارداً قليلاً، ولم تكن سونغ ليان ترتدي غيرَ سترة صوفية، وتمشى ضامّة ذراعيها على صدرها. رأت من بعيد فيّ بو قادماً من الباحة الوسطى ومتجهاً صوبها. تردّدت سونغ ليان فيما إذا كان ينبغي لها أن تلقي عليه التحية، ولكنّه هتف قائلاً: «صباح الخير سونغ ليان.» دُهِشت لكونه ناداها باسمها مباشرة، فهزّت رأسها وقالت:

- وفقاً للسُّلم العائلي يجب عليك ألا تتاديني باسمي.

وقف فيّ بو على الجانب الآخر من حوض زهور الأقحوان، وردّ مبتسماً وهو يزرّر قميصه: «يجب أن أناديك الزوجة الرابعة، لكنك بالتأكيد أصغرُ مني ببضع سنوات، كم عمرك؟»

بدا عليها الضيق وأشاحت بوجهها متأملة الزهور. سأها فيّ بو: «تحبين زهور الأقحوان أيضاً؟ لقد ظننت أنّ المرء حينها يصحو مبكراً

يمكنه أن ينعم بشيء من السكينة والهدوء النفسي، لم أعتقد أنك تستيقظين قبلي.»

- أحبُّ الأقحوان منذ صغري.

- أيُّ نوعٍ تحبين؟

- كلُّ الأنواع، إلا الأقحوان الأحمر.

- لماذا؟

- لأنَّ أزهارها تفتح بشكلٍ مثير. ضحك في بو وقال: «هذا شيق، أكثر ما أحبه أنا الأقحوان الأحمر.» قالت مصوِّبةً نظراتها إليه: «هذا ما ظننته.» فسألها: «لماذا إذن؟» سارت سونغ ليان بضع خطواتٍ إلى الأمام وقالت، «الوردة ليست وردة، الإنسان ليس إنساناً، الوردة هي الإنسان، والإنسان هو الوردة، ألا تفهم هذا؟» رفعت سونغ ليان رأسها فجأة، ولاحظت ألقاً يرتسم في عينيه، وأنه، وكان بإمكانها أن تفهمه.

قال فجأة ممسكاً خصره: «سأقتلع زهور الأقحوان الأحمر.» لم ترد سونغ ليان، بل راقبته وهو يقتلعُ الزهور، ويضع مكانها أحواض زهور أقحوان زهرة الغريب. بعد برهةٍ قالت سونغ ليان: «الزهور بديعة، لكن قصَّها على شكلٍ كلماتٍ أمرٌ قبيحٌ ومبتذل.» نفصَّ في بو الطين عن يديه وزرَّ عينيه قائلاً: «ما باليد حيلة، أوامرٌ والدي، كلُّ سنةٍ نفعلُ ذلك، إنَّها عادةٌ متوارثةٌ عن الأجداد.»

ومنذ ذلك اليوم، تغمرها السعادةُ كلِّما تذكَّرت مشهدَ زهورِ الأقحوان في عيدِ التاسعِ المزدوج. وكأنَّ ثمة نوعاً من الارتباطِ والانسجامِ نشأ بينها

وبين في بو. وحين تتذكّر كيف اقتلع الأحقوان، تضحك بصوتٍ مرتفع، ولكنها الوحيدة التي تعلم، أنّها لا تكره ذلك النوع من زهور الأحقوان بشكل خاص.

- من التي تحبّها أكثر؟ كانت سونغ ليان تسأله دائماً وهي مستلقية إلى جانبه. «نحن أربعة، من التي تحبّها أكثر؟»

- أنتِ بالطبع.

- ماذا عن شورو؟

- شورو ليست إلا دجاجةً عجوز.

- وجوه يون؟

- لا بأس بها، لكنّها متساهلة بعض الشيء.

- ماذا عن مي شان؟ كانت سونغ ليان غير قادرة على التحكم في

فضولها تجاه مي شان. «من أين هي؟»

- لا أدري، حتى هي لا تعلم.

- هي يتيمة إذن.

- إنها ممثلةٌ مسرحية، تؤدي الأدوار النسائية في فرقة أوبرا بكين. وأنا

مثلُ هاو، وكنْتُ أذهبُ لمشاهدتها في الكواليس، وأدعوها لتناول الطعام، بعد عدّة مرّاتٍ عادت معي.

ربت سونغ ليان على وجهه قائلة: «كلُّ النساءِ يرغبن أن يكنّ

بصحبتك.»

- هذا الكلام نصفه صحيح، يجب أن تقولي إن النساء يجبن مصاحبة الرجال الأغنياء.

ضحكت سونغ ليان وقالت: «كلامك نصفه صحيح، يجب أن تقول إن الرجال الأغنياء حين يزدادون ثراءً يسعون إلى المزيد من النساء، ومهما يكن إلى جانبهم من نساء لا يكتفون.»

لم تسمعها سونغ ليان وهي تغني من قبل، إلا أنه في صباح ذلك اليوم تهادى من الخارج صوت غناء عذب بعيد أيقظ سونغ ليان من أحلامها، فهزت تشين زوي تشين الغارق في النوم وسألته: «هل هذا غناء مي شان؟» غمغم قائلاً: «إنها تغني حينما تكون سعيدة، وتضحك حينما تكون حزينة، هذه الساقطة.»

فتحت سونغ ليان النافذة، وتأملت الطبقة الرقيقة البيضاء لثلج الخريف المتساقط على الحديقة طوال الليل، حيث كان ثمة امرأة عند العريشة ترتدي ستره وتنورة سوداء، ترقص وتغني في الوقت ذاته. كانت هذه المرأة هي مي شان.

ارتدت سونغ ليان ملابسها وخرجت، ووقفت عند المدخل تنظر من بعيد إليها. كانت مي شان غارقة في غنائها، غناء عذب حزين، انجرف معه فؤاد سونغ ليان. وبعد مضي بعض الوقت، توقفت مي شان عن الغناء، وبدا وكأَنَّها رأَتْ ظلالَ دموعٍ تملأ عينيَّ سونغ ليان. رمت مي شان أكمام زي الأوبرا على كتفها وسارت عائدة. كان وجهُ مي شان وملابسها يلمعان بضياء بلوريٍّ في ضوء الصباح الباكر، وندى الصباح يبُلُّ شعرها الملقوف، وبهذه الهيئة الرطبة الحزينة سارت، وكأَنَّها عشبَةٌ في

مهبّ الريح.

- هل تبكين؟ أألسيت سعيدة، لماذا تبكين؟ وقفت مي شان أمامها وقالت بفتور. أخرجت سونغ ليان مندبلاً ومسحت دموعها قائلة: «لا أعرف ماذا دهاني. ماذا كنتِ تغنين؟»

- «شبحُ المرأةِ المعلقة». هل أحببتِها؟

- إنني لا أعلم شيئاً عن الأوبرا، ولكن ثمة شغفٌ في غنائك مثيرٌ للمشاعر، جعلني أشعر بالحزن كذلك. لاحظت سونغ ليان للمرة الأولى تعابيرَ وجهِ مي شان اللطيفة الطيبة، أخفضت مي شان رأسها ونظرت إلى زيتها المسرحي وقالت: «لقد كنتُ ممثلةً في الأصل، لا داعي للشعور بالحزن. إذا مثلت جيداً يمكنك خداع الآخرين، وإن لم تحسني التمثيل فلن تخدعي إلا نفسك.»

علا صوتُ سعالِ تشين زوي تشيان في الغرفة، فنظرت سونغ ليان إليها مُحرّجة.

- أألن تذهبي لتساعدني على ارتداءِ ملابسه؟

هزّت سونغ ليان رأسها وقالت: «ليرتديها بمفرده، إنّه ليس طفلاً.» بدا على مي شان غضبٌ طفيفٌ وضحكت قائلة: «إنّه يطلب مني أن أساعده على ارتداءِ ملابسه وخذائته، يبدو أنّ إحدانا تملكُ بعض الامتيازات.» في تلك اللحظة هتف تشين زوي تشيان قائلاً: «مي شان، تعالي وغني لي!» علا حاجباها الرفيعان في لحظة، وابتسمت بفتور، ثم هرولت ناحية الشباك وقالت: «لا أريدا!»

فهمت سونغ ليان طباع مي شان. وحين راوغت بشكل ما لتفتح هذا الموضوع، قال تشين زوي تشيان: أنا الملام لأنني أفسدتها بالدلال في السنوات السابقة. إنها تسبُّ أجدادي بكل جرأة. هذه العاهرة الكلبة! سألقنها درساً قاسياً عاجلاً أم آجلاً.

- لا تكن قاسياً للغاية كذلك، إنها في الحقيقة مسكينة، لا أهل لها ولا أصدقاء، إن مزاجها حادٌ لأنّها تخشى أنك كفتت عن حبّها.

وهكذا نشأ بين سونغ ليان ومي شان نوعٌ من التواصل الفاتر. تحب مي شان المايجانغ، وتدعو الناسَ دوماً ليشاركوها اللعب من بعد العشاء حتى منتصف الليل. لكنّ الضوضاء الناجمة عن خلطٍ مكعبات اللعبة، كانت تؤرِّقُ سونغ ليان وتمنعُ عنها النوم، فاشتكت إلى تشين زوي تشيان الذي طيَّب خاطرَها قائلاً: «تحملي قليلاً، إنّها تلعبه بانتظام، وعلى كل حال لقد خسرت الأموال ولن أعطيها، سأجعلها تشعرُ بالضيق والغم، سأجعلها تتمنى الموت.» وفي إحدى المرات أرسلت مي شان خادمتها لتدعو سونغ ليان لتلعبَ معها، لكن سونغ ليان أعادت الخادمة قائلة: «أنا أذهب للعبِ المايجانغ؟ من أين جاءت لكم تلك الفكرة الغبية.» ثم جاءت مي شان بنفسها:

- نحن ثلاثة وينقصنا لاعبٌ واحد، لا تخذليني.

- لا أجدد اللعب، وستلوميني إذا خسرت. تأبطت مي شان ذراعها وقالت: «هيا بنا، لن آخذ مالك إذا خسرت، وإن فزت سأعطيك المال، وإذا خسرت أمام الآخرين سأدفعُ أنا.»

- لا يهم، فأنا لا أحبُّ الماجينغ على كلِّ حال.

لمحت الاستياء الذي بدا على وجهِ ميِ شان في الحال، ثم أطلقت شخرة وقالت: «ماذا لديكِ هنا؟ وكأنكِ تحرسين كنزاً من الذهب! ترفضين الذهابَ إلى أيِّ مكانٍ كعجوزِ هرمة!» استشاطت سونغ ليان غضباً، وحين فكَّرت بالرد، ابتلعت كلامها لتتجنبَ السباب، ثُمَّ عَضَّت على شفتيها وفكَّرت برهة وقالت: «حسنٌ، سأذهبُ معك.»

كان ثمة شخصان ينتظران بالفعل، الأول هو الخادم تشين زوي وين، والآخر لم تعرفه، فعرفتها ميِ شان به قائلةً إِنَّه طيب، أَسْمَرُ البشرة، وشفته ناعمتان حمراوان كأنَّها شفاه نساء، وعلى عينيه نظارةٌ ذهبيةٌ الخواف، وقد رأته سونغ ليان من قبل يدخلُ غرفةَ ميِ شان ويخرجُ منها، ولكنَّها لم تصدِّقْ أَنه طيب.

كانت سونغ ليان تجلس إلى طاولةِ اللعب بدون تركيز، مستمعة بشكلٍ مبهمٍ إلى أصواتهم وهم يهتفون شيش يَك، جهاز دو⁽¹⁾، إنَّها حقاً لا تجيد اللعب. كانت تخسرُ المالَ فقط، ورويداً رويداً تسلل الأُمُّ إلى فؤادها وقالت: «أشعرُ بالصداع، أريدُ أن أرتاح قليلاً.»

قالت ميِ شان: «يجب أن نلعبَ ثماني دورات، هذه هي القواعد.»

- هل أنتِ مستاءة لأنك تخسرين؟ لا عليكِ، اخسري ثروةً صغيرةً لتجنَّب كوارثَ كبيرة. قال تشين زوي وين.

1. يتعلق الأمرُ هنا بلعبة شبيهة بلعبة الدومينو، ويردد الصينيون عبارات عن الأرقام التي تأتي بها القطع خلال اللعب.

ردت مي شان: «اعتبري أنك تصنعين معروفاً لجوه يون اليوم، إنَّها تشعرُ بالكآبةِ والكدرِ منذ فترة، أعيري لها الشيخ ليلة، واجعلها تردُّ لك ما خسرتيه اليوم.» انفجر الرجلان بالضحك، وضحكت سونغ ليان كذلك وقالت: «مي شان إنَّك مسلية في الحقيقة.» ولكنها شعرت بالانزعاج والضيق كأنَّها ابتلعت ذبابة.

راقبت سونغ ليان بهدوء نظرات الغرام والمغازلة بين مي شان والطبيب، وخطر ببالها أن الأمر لا يتعدى كونه حدساً. وأثناء خلط مكعباتِ اللعب أوقعت سونغ ليان مكعباً، وإذ انحنت لتلتقطه، دهمها فجأة مشهد أرجلها المتشابكة تحت الطاولة، التي ما لبثت أن افترقت بسرعة فائقة وتلقائية شديدة، لكن سونغ ليان رأتها بكل تأكيد.

ظلَّت سونغ ليان هادئةً ورابطة الجأش، ولم تعد تنظر إلى وجهي مي شان والطبيب. وفي تلك اللحظة راودتها الكثيرُ من المشاعر المختلطة، كانت تشعرُ بشيءٍ من الحيرة، وشيءٍ من القلق، وشيءٍ من الشجاعة أيضاً، وقالت في سرِّها: مي شان إنَّك تعيشين مرتاحة البال وبطيش بالغ.

(3)

ثمة أوقات كثيرة في الخريف كهذه، يصيرُ الطقسُ غائماً، ويهطلُ المطرُ في الحديقة الخلفية بلا انقطاع، ويتهادى صوتُ يشبه تكسّرَ اليشمِ من أغصانِ شجر الأرجوان والرمان. في هذه الأوقات تجلسُ سونغ ليان إلى جانبِ النافذة بمزاجٍ كئيب، تدور في خُلدها أفكارٌ غامضة، متطلعة إلى قطعةٍ حريرٍ مغزولةٍ مُعلّقةٍ على حبلِ الغسيل وقد بلّلتها ماءُ المطر.

لا تفهم سونغ ليان لمَ تحنُ دائماً إلى ممارسةِ الحب وقت هطول المطر. ولا ينتبه تشين زوي تشيان إلى الأثر الذي يتركه الطقسُ في نفسها، وبدا حائراً مرتبكاً ثم قال: «إنَّ العمرَ لا ينتظرُ أحداً، وقد سئمتُ كذلك من العقاقير والزيوتِ المنشّطة.» ولمسَ بشرتها الوردية الدافئة، ولمسَ الكثيرَ الكثيرَ من الرغباتِ الشَّبَقَةِ التي تتقافزُ على بشرتها، فهاجت يده شيئاً فشيئاً، ولمست شفثاه جسدها. استلقت سونغ ليان على جانبها وخذودها مُتضَرِّجةً، ومضت تسمع صوتَ هطولِ المطر، أغضمت عينيها نصفَ إغماضة، وأنت قائلة: «المطرُ يهطل.» لم يسمعها تشين زوي تشيان بوضوح: «ماذا تقولين؟ قلادة؟»

- نعم، قلادة، اهدني أجملَ قلادة.

- أيُّ شيءٍ تريدينه، ألا أقدمُ لك أيَّ شيءٍ ترغبن فيه؟ ولكن إياك أن تخبرين. انتفضت سونغ ليان فجأة وجلست: «هَنْ؟ مَنْ هُنَّ؟ أنا لا أكثرُ لهن.

- هُنَّ لا يضاھينك في شيء. ورأى أن تعبير عينيها تغير فجأة وبسرعة، فأبعدته سونغ ليان، وارتدت سرواھا الداخلي ووقفت أمام النافذة.

- ما بك؟ التفتت وقالت بمرارة: «مزاجي سيء، لمْ ذكرتهن؟»

نهض ووقف إلى جانبها على الفور، وتطلعا إلى مشهدِ المطر الهائل خارج النافذة، حيث كان العالمُ بأكلمه في تلك اللحظة مبدلاً وحبزناً، والحديقة خاليةً من أيِّ إنسان، وأوراقُ الشجرِ الخضراء تفيضُ برودة، داعب النسيمُ عريشةَ الوستاريا، وبدت من بعيد كإنسانٍ يتراقص. تذكّرت سونغ ليان البئر، تذكّرت الأقاويلَ حول تلك البئر.

- هذه الحديقة مخيفة.

- لماذا؟

أشارت سونغ ليان إلى عريشةِ الوستاريا وقالت: «تلك البئر.»

- لقد مات فيها شخصان، ألقيا بجسديهما، لقد حطّما حياتهما.

- مَنْ مات؟

- لن تعرفيها على كل حال، كانا امرأتين من الجيلِ السابق.

- كانتا زوجتين. تجهّمت ملامحه على الفور وقال: «من أخبركِ؟»

ضحكت سونغ ليان وقالت: «لم يخبرني أحد، لقد رأيتها بنفسي، ذهبتُ إلى هناك، وبنظرة لمحت وجهي المرأتين يطفوان في أعماق البئر، واحدة تشبهني، والأخرى تشبهني كذلك.»

- كفالكِ عبثاً، ولا تذهبي هناك مرة أخرى. صفقت بيدها وقالت: «هذا لن يحدث، فلم أذهب بعد لأسأل هاتين العفريتتين عن سببِ قفزهما إلى البئر؟»

- أهذا يحتاج إلى سؤال، هي بعض الأمور القذرة التي لا مناص من التخلص منها. ترددت سونغ ليان فترة طويلة، ثم قالت فجأة: «لا عجب أن هذه الحديقة بها العديد من الآبار التي حُفرت من أجل الباحثين عن الموت.» احتضنها تشين زوي تشيان وقال: «كلامك سخيف، لا تسرحي بخيالك.» ثم أمسك يدها وجعلها تلمس عضوه وتابع: «حسن الآن، تعالي، سأكون في غاية الرضا إن متُّ على سريرك.»

كانت أمطارُ الخريف تتساقطُ بهدوءٍ في الحديقة، ولهذا كان لما يحدث في الغرفة نوعٌ من نكهة الموت، حيث تقبع أمام ناظرها عتمةٌ قائمةٌ خاليةٌ إلا من زهراتٍ أقحوان «زهرة الذهب» تلمعُ على الترسّيجَةِ بظلالٍ مُهمِرٍ خفيفة. سمعت سونغ ليان صوتَ حركةٍ في الخارج، فأمسكت زجاجةَ عطرٍ ورمتها باتجاه الباب.

- ما بكِ الآن؟

- إنها تلتصصُ علينا.

- مَنْ يتلصصُ؟

يان أرا! ضحك تشين زوي تشيان قائلاً: «علامَ تلتصص؟ ليس بإمكانها رؤية شيء.»

ردت سونغ ليان بحدة: «لا تدافع عنها، إنني أستطيع شم رائحتها العفنة من بعيد.»

حلّ المغيب، واجتمع في الحديقة مجموعة من الناس يستمعون إلى عزف في بو على الناي. كان يرتدي سترةً وينظوناً حريرياً، وبدا مظهره أكثر شاعرية. كان يجلس في المنتصف، وأكثر المحيطين به من زملاء عمله. حينها كانت تلك المجموعة محطّ اهتمام كل من في منزل عائلة تشين، جلس الخدم أمام المداخل يتطلعون إليه من بعيد ويتهامسون. ومن في الغرف، كانوا يستمعون إلى عزفه وكأنه ماء يتدفق بروية إلى النوافذ، لم يكن باستطاعة أحد تجاهل عزفه.

كان عزفه يؤثّر فيها دائماً، وأحياناً تنهمر دموعها. وودت بشدة لو تجلس بينهم، وتقرب منه. كانت نغمات عزفه تذكرها بشاب في الجامعة يجلس بمفرده في حجرة الدراسة ويعزف الناي، وقد تلاشت ملامح وجهه من ذاكرتها بالفعل، ولم تكن تحمل له أيّ مشاعر خفية، ولكن هذا النوع من المشاهد البديعة كان دائماً يمس قلبها. ترددت سونغ ليان فترة، ثم سحبت كرسيّاً من الخيزران وجلست أمام المدخل، وأنصت إلى أنغام ناي في بو. لم يمر وقت طويل حتى سكت صوت الناي، وبدأت المجموعة في الحديث. وفجأة شعرت سونغ ليان بالملل، وفكرت، إنّ الحديث مملٌ للغاية، إن لم تخدعني سأخدعك أنا، ما أن يبدأ الناس في الحديث حتى يبدو مبتذلين مخادعين، ولهذا عادت إلى غرفتها، وتذكرت

بغته أن ثمة نايًا في حقيبتها، الإرث الذي تركه لها والدها. فتحت سونغ ليان الحقيبة، ولأنها لم تُفتَح لفترة طويلة، فقد كانت رائحتها عفنة قليلاً، والسترة والتنورة التي كانت تلبسهما أيام الدراسة نظيفتين مكومتين في الحقيبة، وكأنتهما مغلفتين بالغبار لطول إهمالهما، تتناثر منهما شذرات أحلام وخيبة أمل. فتشّت سونغ ليان الملابس ولم تعثر على ذلك الناي، وكانت واثقة تماماً أنّها وضعت في الحقيبة قبل أن تغادر منزلها. «كيف لا أجده؟ يان أر تعالي.»

- أيتها الزوجة الرابعة لم أنتِ هنا ولا تستمعين إلى عزف السيد الصغير.

- هل فتحتِ حقيبتِي؟

- لقد طلبتِ مني أن أرتبها لكِ، ففعلتُ ذلك.

- ألم تري نايًا؟

- ناي؟ لا، الرجال فقط من يعزفون الناي! حدّقت إليها سونغ ليان، وابتسمت ابتسامة فاترة وسألتها:

- إذن هل سرقتِ الناي؟

- أيتها الزوجة الرابعة لا تهيني الناس جُزافاً، لم أسرق نايك؟

- لديك بطبعك أفكارٌ شريرة، وتضميرين النوايا السيئة طوال الوقت، وتظاهرين وكأنّ شيئاً لم يحدث.

- لا تكوني ظالمة أيتها الزوجة الرابعة، اذهبي واسألي السيد الكبير

والسيد الصغير والزوجة الأولى والثانية والثالثة إذا كنت قد سرقْتُ شيئاً من قبل.

لم تهتم بها سونغ ليان، ونظرت إليها باحتقار، بعدها اندفعت راکضة إلى حجرة يان أر، وداست بقدمها على حقيبتها وزعقت: «تكابرين في الخطأ! افتحي الحقيبة!» اندفعت يان أر وسحبت قدمها ورجتها قائلة: «أرجوك لا تدوسي على حقيتي، أقسمُ لكِ لم أسرقُ نايك.» وإذ رأت سونغ ليان تعابير وجهها، أدركت ما يجب عليه فعله، فالتقطت فأساً من إحدى زوايا الغرفة، وجربته: «إذا لم أجد الناي سأشتري لكِ حقيبةً جديدةً غداً.» صرّت على أسنانها وبضربة فتحت حقيبة يان أر، وتدحرجت منها عملاتٌ معدنية وأشياء أخرى، فتّشت سونغ ليان في الملابس، ولكنها لم تجد الناي، بل وجدت قطعة قماشٍ بيضاء متفخخة، فتحتها لتلقي نظرة، ورأت داخلها دميةً قماشيةً صغيرةً عُزّزت في صدرها ثلاثُ إبرٍ حادة. في البداية ظنّت سونغ ليان أنّ الأمر مضحكٌ، لكنها اكتشفت أنّ الدمية الصغيرة تشبهها، فتمعنت فيها بدقة، لترى أنّ حرفين مكتوبين على جبهة الدمية: سونغ ليان. أحسّت بالألم وكأنّ الإبر الثلاث تُوخزها، وشحّب وجهها فجأة. استندت يان أر على الجدار تنظرُ إليها برعب. أطلقت سونغ ليان فجأةً صرخةً حادة، وقفزت وأمسكت يان أر من شعرها، وضربت رأسها في الحائط مرّةً تلو الأخرى. غصّت سونغ ليان بدموعها وصرخت: «هل تريدین موتي! هل تريدین موتي!» لم تستطع يان أر الإفلات، بل وقفت في مكانها مُسمّرةً برعبها وضعفها، وهي تنشج نشيجاً متقطّعاً. توقفت سونغ ليان لتلتقط أنفاسها وتذكرت أنّ يان أر أميّة، إذن من

كتب اسمها على الدمية؟ هذا السؤال ألم قلبها بشدة، فجثت على ركبتها، ومسحت دموع يان أر، وتحدثت معها بلطف ورقة: «لا تبك، ما حدث قد حدث، لا تفعل ذلك مرّة أخرى، أنا أسامحك. ولكن يجب أن تخبريني مَنْ كتبَ اسمي.» نشجت يان أر بأنفاسٍ متلاحقة، وهزّت رأسها قائلة: «لا أستطيع أن أخبرك.» قالت سونغ ليان: «لا تخافي، لن أحدثَ مشكلة، أخبريني فقط ولن أورطك في الأمر على الإطلاق.» هزّت يان أر رأسها مرّة أخرى. لذا بدأت سونغ ليان في التخمين. «شورو؟» هزّت يان أر رأسها بالنفي. «إذن مي شان بالتأكيد؟» هزّت يان أر رأسها بالنفي أيضاً. ذهلت سونغ ليان، وارتعش صوتها: «جوه يون؟» لم تهز يان أر رأسها، وبدت ملاحظها حزينةً بلهاء. نهضت سونغ ليان، ونظرت إلى الأعلى وقالت: «قد تعرف وجه المرء ولا تعرف قلبه، هذا ما توقعته.»

سألها تشين زوي تشيان إذ رأى عينيها المتفتختين، جالسةً بمفردها على الكنب، وتفرك في يدها زهرةً أفحوانٍ ذاوية: «هل كنتِ تبكين؟» ردت سونغ ليان: «لا، إنك تعاملني بلطفٍ بالغ، فلم أبكي؟» فغرّ تشين زوي تشيان وقال: «لنذهب إلى الحديقة إن كنتِ ضجيرة، أو نخرج ونتناول وجبةً خفيفة.» فركت سونغ ليان الأفحوانة الذاوية عدة مرات، ثم ألقتهما من النافذة وسألته بفتور: «أين وضعتِ نايمي؟»

تردد برهة ثم أجاب: «خشيتُ أن يشغلكِ عني، فأخذته.» طفت على شفيتها ابتسامةً فاترةً وأجابت: «إنّ قلبي هنا، ما الذي سيشغلني عنك؟» حينها رد تشين زوي تشيان بصرامةٍ وجدية: «إذن أخبريني مَنْ أهداكِ هذا النايمي؟»

«إنه ليس هدية، بل ميراث، ورثته عن والدي.» ردت سونغ ليان
بتساؤل.

رد تشين زوي تشيان وقد أصابه شيءٌ من الحرج: «إنني أفكرُّ كثيراً،
وظننتُ أن شاباً أهداكِ الناي.»

بسطت سونغ ليان يديها وقالت: «أعده لي بسرعة، وأنا فقط من يهتم
بأشياي.» أصبح تشيان زوي تشيان أكثر ارتباكاً وفرك يديه ومضى يذرغُ
الغرفة جيئةً وذهاباً وقال: «إنَّ هذا لأمرٌ سيء، لقد طلبتُ من أحدهم أن
يحرقه.» لم يسمعها تشين زوي تشيان تتكلم مرّةً أخرى، وأظلمت الغرفة
شيئاً فشيئاً. أضاء المصباح ورأى وجهها شاحباً كالثلج، والدموعُ معلّقةٌ
بسكونٍ على وجتها.

كانت تلك ليلةً استثنائيةً للثنين، فقد احتضنت سونغ ليان نفسها
وانكلمت كحَمَلٍ مبتعدة عن جسدِ تشين زوي تشيان، فداعبها بيده،
ولم يلقَ استجابة، ومضى يشعلُ الضوءَ تارةً ويطفئه تارةً أخرى، لكنّه ظلَّ
يرى تعابير وجهها ممتعةً كورقةٍ بيضاء.

- إنكِ تبالغين في الأمر، إنني أوشك أن أركع لتغفري لي.

صمتت سونغ ليان برهة ثم قالت: إنني متعبة.

- إنَّ أكثرَ ما أكرهه أن يصرفَ أحدٌ وجهه عني. فاستدارت سونغ
ليان وقالت: اذهب إلى جوه يون إذن، فهي بشوشةٌ دائماً على أيِّ حال.

نزل تشين زوي تشيان من السرير وارتدى ملابسه وقال: حسنٌ
سأذهب، من حُسنِ حظِّي أن لدي ثلاث زوجات أخريات.

زارتها جوه يون في اليوم التالي، وكانت سونغ ليان لا تزال مستلقيةً في سريرها، وأصابتها رعدةٌ غامضة ما أن رأتها تزيح الستارة وتدخل الحجره. تظاهرت سونغ ليان بالنوم، فجلست جوه يون عند مقدمة السرير وتحسّست جبهتها وقالت: «حرارتك ليست مرتفعة، إنك لست مُتعبة، بل غاضبة.» ابتسمت سونغ ليان وعيناها مطفئتان وقالت: «آه لقد جئت.» سحبت جوه يون يدها وقالت: «انهضي بسرعة، إن الاستلقاء بهذا الشكل يحفزُ المرض حتى وإن لم تكوني مريضة.»

ردّت سونغ ليان: «أنهض لفعلي ماذا؟»

قالت جوه يون: «لتقصّي لي شعري، أريد أن أقصّ شعري مثلك، كتسريحة الطالبات، إنَّها تسريحة أكثر حيوية.»

جلست جوه يون على مقعدٍ مستديرٍ بانتظار أن تقصّ سونغ ليان شعرها. لفت سونغ ليان حولها سترة قديمة، ثم سّرحت لها شعرها بهدوء وقالت: «إن لم أقصه بشكلٍ حسنٍ فلا تلوميني، إنَّ شعرك رائعٌ هكذا، سيصيك الارتباك في الحقيقة إن قصصته.»

فردت جوه يون: «لا عليك إن لم تقصيه بشكل جيد، كلُّ شيءٍ مظهره حسنٌ في عمري هذا.»

لا زالت سونغ ليان تسرح شعرها إلى الأعلى وإلى الأسفل. «سأقصه أنا إذن، قصّي، ما بكِ خائفة هكذا؟» قالت جوه يون.

ردت سونغ ليان: «هي قلة ممارسة في الحقيقة، أخافُ أن أجرحك.» ثم قصّت شعرها على الفور. وتساقط شعرُ جوه يون الأسود الناعم

الخصلاتُ على الأرض، ورنَّ صوتُ المِقْصِّ معه.

قالت جوه يون: «ما رأيك، ألسِتِ سريعةً وماهرة؟»

«حَسَنٌ لا تُثني علي، سترتجفُ يدي إذا أُنيتِ علي.» قالت سونغ ليان. ثُمَّ سمعت جوه يون تُطلقُ صرخةً حادة، فقد جرحت سونغ ليان أذنها. حتى أن مَنْ في الحديقة سمعوا الصرخةَ المخيفة، وهرولت الخادِماتُ من غرفةِ مي شان ليروا ما الذي يجري، ووقعت أعينهن على جوه يون تمسكُ بأذنها اليمنى وهي غارقةٌ في عرقٍ غزير، وسونغ ليان تقفُ جانباً ممسكةٌ بالمقص والشحوبُ يعلو وجهها أيضاً، والشعر الأسود يتناثر على أرضيةِ الحجرة. «ما بك؟» قالت جوه يون وقد انفجرت الدموع من مقلتيها، ولم تنتهِ من كلامها حتى أمسكت أذنها وخرجت إلى الحديقة. ظلَّت سونغ ليان واقفةً إلى جانبِ كومةِ الشعرِ والمِقْصِّ الذي سقط من يدها، وكانت تحدُّثُ نفسها قائلة: «لقد ارتجفت يدي، إنني مريضة.» بعدها أخرجت الخدمَ المتفرجين: «ماذا تفعلون هنا؟ اذهبوا وأحضروا الطبيب للزوجة الثانية على الفور.»

ظلَّت مي شان في الغرفة ممسكةٌ بيدها طفلها في لان، ونظرت مبتسمة إلى سونغ ليان، لكن الأخيرة تجنبت نظرتها، وكنست الشعرَ بمكنسةٍ من القصب، وسمعت مي شان تضحكُ بغتة، فسألتها: «لم تضحكين؟»

طرفت مي شان بعينها وقالت: «إن كنتُ أكرهاها فسأقطعُ أذنيها الاثنتين، لن أبقى على واحدة.»

«ماذا تقصدين بكلامك؟ أن لدي غرضاً من هذا؟» قالت سونغ

ليان وقد بدت على وجهها علامات الكآبة.

ضحكت مي شان وقالت: «السماء وحدها تعلم.»

تجاهلت سونغ ليان حديثها، واستلقت على السرير كما كانت وغطت وجهها باللحاف، وتناهى إلى أذنها صوت ضربات قلبها. لم تعلم إن كانت تتحمل مسؤولية حادثة المِقْصِّ تلك أم لا، وعلى الجميع أن يصدق أنّها لم تكن مُتعمّدة. في تلك اللحظة سمعت مي شان تقول لها: «إنّ لجوه يون وجهاً بشوشاً وقلب أفعى، إنّ لها مكائد أكثر من أيّ شخص.»

ثم أردفت قائلة: «أعلم أنّي لست غريمتها، ربما استطعت أن تصدي لها، خمنت ذلك منذ أن رأيتك للمرة الأولى.» تحركت سونغ ليان تحت الغطاء، واستمعت إلى مي شان التي انخرطت في ثرثرة غير متوقعة، قالت: «هل تريدان أن تعرفي ما الذي حدث وقت حملنا؟ لقد حملت أنا وهي في الوقت ذاته تقريباً، وحين كنتُ في الشهر الثالث وضعت في أعشابي المغلية عقاراً للإجهاض، ولحسني حظي لم يُجهض طفلي، بعد ذلك جاءتنا آلام الولادة في الوقت ذاته أيضاً، فأرادت أن تنجب أولاً، ومن أجل ذلك أنفقت أموالاً كثيرة في شراء حقن الأوكسيتوسين من الخارج وحقنت فرجها حتى اهترأ، لكن لحسني حظي أنجبت ولداً هو فيّ لان، أما هي، ومع كلّ محاولاتها عديمة الجدوى، فقد أنجبت بي رونغ، والتي لا تعدو كونها كلبّة وضيعةً وأصغر من فيّ لان بثلاث دقائق.»

(4)

حلَّ الخريف، وارتدت النساءُ الملابسَ المناسبة، وتساقطت أوراقُ الشجر وتطايرت في الصباح وفي الليل، وغطَّت الحديقةَ مساحةً صفراءً جرداء، حيث كانت عدةُ خادِماتٍ جاثياتٍ يحرقن أوراقَ الشجر، وانتشرت في الأرجاءِ رائحةُ الاحتراق. حينها فتحت سونغ ليان النافذة، ورأين وجهها الذي تضرَّج بحمرةٍ قانيةٍ من غضبها. أمسكت مشطاً خشبياً ومضت تجبِط على النافذة وقالت: «مَن طلب منك حرق الأوراق؟ إنَّ رائحتها مؤذية.»

جمعت الخادِمات سلاهن ومكانسهن، وردت خادمةٌ كانت على قَدْرِ من الشجاعة: «ماذا سنفعلُ بأوراق الشجر؟»

قذفت سونغ ليان المشطَ عليها وصرخت: «من غير المسموح حرق أوراق الشجر، مفهوم؟» ثم أغلقت النافذة بعنف.

إنَّ الزوجةَ الرابعةَ تغدو أكثرَ عصبيةً يوماً بعد الآخر، هكذا أخبرت الخادِماتُ شورو. «لم تسمح لنا بحرق الأوراق، لمَ غدت عصبيةً هكذا؟» عنفتها شورو وقالت: «ممنوع الثرثرة، ليس من شأنك خلق العداوات والخصومات.» إلا أنَّ داخلها كان يشتعلُ من الغضب. «تعودنا على

حرق أوراق الشجر في الحديقة كل عام عدة مرّات، فهل ستمنعنا سونغ ليان هذه وتكسر القاعدة؟» قالت شورو.

وقفت الخادمة ويدها إلى جانبيها وقالت: «لن نحرق الأوراق إذن؟»

ردّت شورو: «من قال إننا لن نحرقها؟ اذهبن واحرقنها، ولا تأبهن بها.»

ذهبت الخادمة وبدأت تحرق الأوراق مرّة أخرى، لكن سونغ ليان لم تظهر، إلا أن إحداهن رأتها حين جمع الرماد تخرج من الجناح الجنوبي بتنورة صيفية، فتعجبت الخادمة من كونها لا تشعر بالبرد، والرياح تعصف في الخارج. وقفت سونغ ليان إلى جانب كومة من الرماد الأسود، وحدّقت إليها ببلاهة لبرهة، ثم ذهبت إلى الباحة الوسطى لتناول الطعام، وكانت تنورتها تتمايل مع الرياح الباردة كفراشة بيضاء.

جلست سونغ ليان إلى المائدة تحدّث إلى أفراد الأسرة أثناء تناولهم الطعام، ولم تحرك ساكناً ولم ترفع عصي الطعام، واكتست ملاحظتها بالرصانة والكآبة وذراعاها مضمومتان على صدرها وكأَنَّها تُحصن نفسها. وصادف ذلك اليوم أن كان تشين زوي تشيان خارج المنزل، والفرصة مواتية لنشوب الخلافات.

قال في بو: «إيه، لم لا تأكلين؟»

ردت سونغ ليان: «معدتي ممتلئة.»

فرد في بو: «هل تناولت طعامك من قبل؟»

أطلقت سونغ ليان شجرة وقالت: «لقد امتلأت برائحة الاحتراق الكريهة حتى شبت». ارتبك في بو ونظر إلى والدته التي تغيرت ملامحها وقالت: «تناول طعامك ولا تتدخل فيما لا يعينك». ثم علا صوتها وحملت في سونغ ليان قائلة: «أيتها الزوجة الرابعة، أريد أن أعرف رأيك فيما يخص أوراق الشجر المكوّمة على الأرض؟»

- لا أعلم، أيُّ حقِّ لي لأتدخل في شئون المنزل؟

- إننا نحرق أوراق الشجر كلَّ خريف، لم نستخدم طريقةً أخرى على الإطلاق، فلم تميزين نفسك بالدلال عن الأخريات؟

- لا أحمّل تلك الرائحة، ثمَّ إنَّ أوراق الأشجار تذبُّل وتتحلل تلقائياً فما الداعي لحرقها؟ إنَّ أوراق الأشجار ليست بشراً.

- ماذا تقصدين؟ يا له من حديثٍ غريب.

- لا أقصد شيئاً، كما أنَّ ثمة أمراً لا أفهمه، لم تكنس أوراق الشجر إلى الباحة الخلفية وتُحرق؟ من يجب تلك الرائحة فيحرق الأوراق عنده. لم تطق شو رو سماع المزيد، فضربت بعصي الطعام على المائدة وقالت: «ألا ترين نفسك في المرأة، ما هو قدرُكِ في منزل تشين يا سونغ ليان؟ إنك تتحدثين كما لو أن أحداً أساء معاملتك.»

نهضت سونغ ليان، ونظراتها مُسمَّرةٌ بتحفظٍ على وجه شو رو الشاحب المنتفخ قليلاً وقالت برقة وكأَنَّها تُحدِّث نفسها: «حسنٌ، كلامكِ صحيح، ما هو قدرِي في هذا المنزل؟» وابتسمت وغادرت، ثم ما لبثت أن استدارت والدموع تترقرق في عينيها وأردفت قائلة: «السماء وحدها

تعلم من تظنون أنفسكم؟»

حبست سونغ ليان نفسها طوال فترة الظهيرة في غرفتها، حتى أنها لم تسمح ليان أر بالدخول لتصب لها الشاي. جلست وحيدة أمام النافذة، تتأمل مزهريّة على التسريحة ذوت واسودّت داخلها باقّة من زهور الداليا، فأمسكت الباقّة وأرادت التخلص منها، لكن لم تعلم إلى أن ترميها، فقد أغلقت النافذة ولم تكن تود أن تفتحها مرّة أخرى. حملت باقّة الزهور ومضت تذرّع الغرفة ذهاباً وإياباً وتفكّر في أيّ موضع ستضع الباقّة، إلى أن استقرت الباقّة في دولاب الملابس. كانت الرياح تعصف في الخارج، رياح شديدة البرودة دفعت بالعمّة شيئاً فشيئاً صوب الحديقة.

سمعت أحداً يطرق الباب وظنّت أنها يان أر قادمة لتصب لها الشاي، ولهذا طرقت على الباب الخلفي. «يا له من أمر مزعج، لا أريد شايًا.» لكن الطارق قال: «إنه أنا، في بو.»

لم تتوقع أن يأتيها في بو، ففتحت الباب واتكأت عليه. «لماذا أتيت؟» كان يمسّد شعره الذي نفسته الرياح، وابتسم مُرجّاً وأجاب: «لقد قالوا إنك مريضة فجئتُ لأنفقدك.» أسكتته سونغ ليان وقالت: «من المريضة؟ إن كنت سأموت فسأموت على الفور، إن المرض عذابٌ للمرء.» جلس في بو على الكنب، وراح يتأمل غرفتها، وقال فجأة: «توقعت أن تكون غرفتك مليئة بالكتب.» بسطت سونغ ليان يديها وردّت: «ولا كتاب، إن الكتب غير مفيدةٍ لي الآن.» ثم نهضت بحركة مباغته وأردفت قائلة: «هل جئت لتعطيني دروساً أنت أيضاً؟» هزّ في بو رأسه نافيةً وقال: «كيف لي أن أفعل ذلك؟ لا تجلب تلك الأمور سوى وجع الرأس.»

- «أنت هنا لتلطيفِ الجوِّ إذن؟ لا أهمية لذلك، فأنا أرى أن توبيخ شخصٍ مثلي أمرٌ ضروري». سكت في بولبرهة وقال: «إنَّ والدي في الواقع لا تضرُّ أيَّ نيةٍ سيئة، لكنَّها عنيدةٌ وصارمة، لا تتخاصمني معها فالأمر لا يستحق». ضحكت سونغ ليان فجأة وهي تذرُّ الغرفةَ جيئةً وذهاباً وقالت: «في الحقيقة لم يكن لدي النية للتشاجر مع الزوجة الكبرى، هذا حقيقي، ولا أعلم ما الذي حلَّ بي، هل تعتقد أنني مضحكة؟»

هزَّ في بولرأسه ثم سعل وردَّ ببطء: «إنَّ الناسَ سواء، لا يعلمون ماذا يحلُّ بهم حينما تدهمهم مشاعرٌ مختلطة، ولا يفهمون كنهها. وجلب حديثهم بتلقائية أمر الناي. «كنتُ أملكُ نايًا، ولكن للأسف، للأسف فقدته». قالت سونغ ليان.

- هل تعزفين الناي كذلك؟ سألها في بولبروح.

- لا، لم يكن لدي الوقت لأتعلَّم.

- ما رأيك أن يعلِّمك أحد أصدقائي؟ لقد تعلَّمتُ معه.

ضحكت سونغ ليان وبدت مترددة. في تلك الأثناء دخلت يان أر تحمل صحنين من حلوى العنَّاب والفطر الأبيض، وقدمت صحنًا إلى في بول أولًا، فعلَّقت سونغ ليان: «أنظري إلى نفسك يا فتاة، يالك من مخلصه، لا داعي أن تهتمي بنفسك واصنعي الحلوى أفضل لك.»

خجلت يان أر وتضرَّج وجهها، فوضعت الصحنَ الآخرَ على الطاولة وخرجت بسرعة. قالت سونغ ليان: «لا تذهبي يا يان أر، إنَّ السيد يريد أن يحدثك.» وأتبع حديثها بضحكة مكتومة. ضحك في بول

أيضاً، وقلَّبَ الحلوى بملعقة فضية وقال: «إنك تعاملينها بحدة.»

ردت سونغ ليان: «هل تعتقد أنها مخلصه ولا تثير المشاكل؟ إنَّ هذه الفتاة قلباً وضيعاً، وكلِّمها زارني شخصٌ تسترقُّ السمع، لا أعلمُ أيَّ نوايا خرقاء تختبئها.»

أحسَّ فيَّ بو بحزنها، فغيَّرَ الموضوع على الفور وقال: «إنني أحب تناول الحلوى منذ صغري، وتحديدأ حلوى مثل العنَّاب والفطر الأبيض، ويُشعرنِي هذا بالحرص الشديد، لأنَّ أصدقائي يقولون إنَّ النساءَ فقط مَنْ يجبن تناول الحلوى.» ظلَّت ملاحظتها مغتمةً، ومضت تعبُّ بأظافرِها التي أبقت عليها طويلة، وطلتها بخلاصة منقوع زهرة البلسمينة، فبدت كحراشفَ وردية. «هل تسمعين ما أقوله؟» سألتها فيَّ بو.

«نعم أسمعك، قلت إنَّ النساءَ يجبن تناول الطعام الحلو، والرجال يجبون تناول الطعام المالح.» ابتسم فيَّ بو وهزَّ رأسه واستأذنها منصرفاً، وقبل أن يغادر قال لها: «إنَّك شخصٌ مثيرٌ للاهتمام، لا أستطيع تخمين ما بداخلك.» فردَّت سونغ ليان: «وأنت شخصٌ لطيفٌ، ولا أستطيع تخمين ما بداخلك أيضاً.»

عُلِّقَت المصابيحُ على بوابة منزل تشين في اليوم السابع من شهر ديسمبر احتفالاً بعيد ميلاد تشين زوي تشيان الخمسين، ولم ينقطع الأصدقاء القادمون لتقديم التهاني منذ الصباح. ارتدى تشين زوي تشيان بذلة سوداءً أهداها له فيَّ بو وجلسَ في حجرة المعيشة يستقبلُ ضيوفه، تحيطه شورو، جوه يون، مي شان، سونغ ليان والأطفال. وفي خضمِّ الاحتفال، سُمِعَ بغتةً صوتٌ حاد، فنظر الحاضرون جميعاً إلى مصدرِ

الصوت، ورأوا مزهرية بطول شخص مكسورة على الأرض.

كان في لان وببي رونغ هما السبب، كانا يلعبان ويركضان وراء بعضهما، فأسقطا المزهرية. وقف الطفلان يحدقان كل منهما إلى الآخر وهما يدركان أنّهما في ورطة. أفاق في لان من ذعره أولاً، وأشار إلى بي رونغ وقال: «هي أوقعتها، لا دخل لي.» فسارعت بي رونغ وأشارت إلى أنفه بإصبعها وقالت: «لقد كان يلاحقني، أنت من أوقع المزهرية.» كانت ملامح وجه تشين زوي تشيان قد تغيرت كلياً، لكنه لم يصدر أي رد فعل في حضور الضيوف. غمغمت شورو بنبرة هادئة لكن غليظة وسارت إلى الطفلين: «شيطانان، شيطانان.» ثم سحبت الطفلين خارجاً، وصدفت كلاً منها صفعة: «منحوسان، منحوسان.»

ثم دفعت في لان وقالت: «اذهب بعيداً.» فجلس على الأرض وانفجر باكياً بكاءً حاداً وواضحاً، انتشر صده حتى حجرة الجلوس. خرجت مي شان راكضة أولاً واحتضنته، ورمقته بنظرة وقالت: «العب، العب، لقد كنتَ مثارَ ملاحظاتهم من قبل، متى استطعت اللعب فتلعب.»

«أيُّ هراءٍ تتفوهين به؟ لقد ارتكبتَ ولدكٍ خطأً، وبدلاً من توبيخه تحمينه؟» قالت شو رو. فدفعت مي شان ابنها أمامها وردت قائلة: «حَسَنٌ، سأتركه لكِ علميه درساً، اضربه، اضربه ضرباً مبرحاً، اضربه لكي يرتاح قلبك.» في تلك اللحظة خرجت جوه يون وسونغ ليان راكضتان.

جذبت جوه يون ابنتها، وضربتها على رأسها: «لم تجلبين لي المتاعب يا طفلي الصغيرة؟ أخبريني من كسر المزهرية؟» انفجرت بي رونغ في

البكاء وقالت: «لستُ أنا، أخبرتكم أنني لم أكسرها، لقد أوقع فيّ لان الطاولة.»

«ممنوع البكاء، لم تبكين طالما لم تفعل شيئا؟» لقد أفسدتما اليوم على السيد. قالت جوه يون.

ابتسمت مي شان التي كانت تقف جانبا ابتسامة فاترة وقالت: «أيها السيدات الثلاث، كيف يكذب صغار السن ولا تضربوهم؟ لقد رأيتُ كل شيء بوضوح، لقد أوقعت الزهرية بذراعها.» ظلّت النساء الأربع صامتات لبرهة، ولم يكن غير فيّ لان يبكي بكاء حادا.

تأملت سونغ ليان المشهد وقالت: «إنّه لأمرٌ تافه، ليست إلا مزهرية، وقد كُسرت، ماذا سنفعل حيال ذلك؟» رمقتها شورو بنظرة وقالت: «نعم كلامك صحيح، أهذا أمرٌ يتعلّق بمزهرية؟ إنّ السيد يجب جمع الأشياء التي تجلب الحظ، ومن ثمّ قابل أشخاصاً مثلكم، وعاجلاً أم آجلاً سيُدَمَّرُ منزلٌ تشين بأيديكم.»

«هل هذه غلطتي أيضاً؟ حسنٌ اعتبري أنني أتفوّه بترّهات، من يهتم لأموركم!» قالت سونغ ليان ثمّ غادرت المكان إلى الحديقة الخلفية، وصادفت فيّ بو مع أصدقائه فسألها: «أين تذهبين؟» تحسّست جبهتها وقالت: «لدي صداع، تصيبي الضوضاء بالصداع.»

أرادت شرب الماء لتخفّف ألم الصداع الشديد، وكانت زجاجة الماء فارغة، ويان أر في حجرة الجلوس تخدم الحاضرين، لكنّ سونغ ليان اغتنمت الفرصة لتريح رأسها ممّا حدث. شتمت سونغ ليان: وضیعة،

وبدأت في تسخين الماء. ولما كانت تلك المرة الأولى التي تقوم فيها بأعمال منزلية منذ أن وطأت قدمها منزل عائلة تشين، فقد كانت حركتها خرقاء تفتقر إلى المهارة. ظلَّت في المطبخ لبرهة ثم سارت إلى المر حيث الحديقة الخلفية الغارقة في صميت مطبق، فقد ذهبوا كلُّهم للاحتفال، ولم يبقَ سوى أصداً وحده تتساقط كقطراتٍ من الأغصان الجافة والأوراق الداوية، وتغوص في قلبها. وقع نظرها على عريشة الوستاريا الداوية، التي تُصدرُ همساتٍ موحشة حين تهبُّ الريح، وكانت البئرُ تناديها بغموض. غطَّت سونغ ليان صدرها، وظنَّت أنَّها تسمعُ في الفراغ صوتَ تحفيزٍ ما.

انجهدت إلى البئر، وأحسَّت بجسدها خفيفاً كالسائرين نياماً، وكان ثمة رائحة نباتاتٍ متعفنة تنتشرُ في الأرجاء. التقطت سونغ ليان أوراقٍ وستاريا وتأملتها، ثم ألقتهَا في البئر، فبدت كأنَّها قطعُ جواهرٍ تطفو على الماء الأسن، وتحجبُ جزءاً من ظلِّها الطافي، وتغطيَّ عينيها. دارت سونغ ليان حول البئر لكنها لم تجد موضعاً يمكنها أن ترى منه وجهها منعكساً على الماء، وكان أمراً عجبياً، هل الأوراقُ هي السبب؟ فكَّرت.

تراقص ضوءُ شمسِ الظهيرة على البئرِ الراكدة، تاركاً بقعاً من نورٍ على الماء، وفجأةً دهمَ سونغ ليان خيالٌ مخيفٌ وتمكَّنَ منها: تخيلتُ أن ثمة يداً، يداً تمسكُ أوراقٍ وستاريا وتغطيَّ عينيها، وظلَّت تتخيل ذلك حتى رأت بالفعل يداً شاحبةً رطبةً ترتفعُ من البئرِ العميقة التي لا يمكن سبُرُ غورها وتغطيَّ عينيها، فأفلتت منها صرخةً رعب: «يد، يد.» وأرادت أن تفرَّ من المكان، لكن جسدها كان وكأنه مُثبَّتٌ إلى البئر، رافضاً أن يتحرك معها حاولت، وصارت كزهرةٍ أتلقتها الريح، منحنية بجسدها، محدقة إلى

عمقِ البئر. وفي لحظةٍ دَوَّارٍ أخرى رأت ماءَ البئرِ يتموِّجُ مصدرأً صوتاً عالياً، واخترقَ أذنها صوتٌ مبهمٌ قادمٌ من بعيد: سونغ ليان، إنزلي. سونغ ليان، إنزلي.

جاءت جوه يون تبحث عنها، فوجدتها تجلسُ وحيدةً في الممر، محتضنة قطعاً مبي شان الشيرازي.

سألته جوه يون: «لم أنت جالسة هنا؟ لقد بدأت وليمة الغداء.»

ردت سونغ ليان: «إنني مصابةٌ بصداعٍ شديد، لا أريد الذهاب.»

قالت جوه يون: «كيف هذا؟ لا بد أن تأتي حتى لو كنت مريضة، إنها

مناسبة، وقد طلب منا السيد ثلاث مرَّات أن تأتي بك.»

فردت سونغ ليان: «أنا حقاً لا أريد الذهاب، أتألم بشدة، اتركوني

أهدأ بعض الوقت.» ابتسمت جوه يون وقالت: «أم أنتِ غاضبة من شو

رو؟»

ردت سونغ ليان وقد بدا على وجهها الضيق: «لا لستُ غاضبة،

ليست لدي طاقة للغضب من أحد.» ثم ألقت القطط وأردفت: «سأنامُ

قليلاً.»

قالت جوه يون والابتسامة لا تزال تعلق وجهها: «نامي إذن وسأخبرُ

السيد بها قلتيه.»

نامت سونغ ليان في ذلك اليوم نوماً عميقاً، وحلمت أيضاً بالبئر،

وأوراقِ الوستاريا الأرجوانية الطافية، وغرق جسدها في عرقٍ بارد. مَنْ

يعلم ما تلك البئر؟ وتلك الأوراقُ الأرجوانية؟ ومَنْ تكون سونغ ليان؟

بعدها استيقظت بكسل، وسرّحت شعرها أمام المرأة. تأملت ملامحها التي بدت زاوية كورقة شجرٍ ذابلة، وأحسّت أنّها لا تعرف تلك المرأة، ولا تحبُّ امرأةً مثل هذه. أخذت نفساً عميقاً، وتذكّرت تشين زوي تشيان وعيد ميلاده، فأحسّت بشيء من الندم، وأثبتت نفسها لأنّها فقدت أعصابها، وكانت تعلمُ في قرارة نفسها أنّ ذلك لن يكون أمراً طيباً لها، لذا أخرجت من الدولاب وشاحاً صوفياً رمادياً، هدية تشين زوي تشيان.

كان أفراد العائلة فقط من يتناولون العشاء، دخلت سونغ ليان ووجدت كلاً منهم في مكانه على المائدة. «لم ينتظروني وبدأوا بالفعل.» هكذا فكّرت سونغ ليان وهي تتجه إلى مقعدها. حياها فيّ بو الجالس قبالتها: «هل أنت أفضل الآن؟» أو مات له، ثمّ استرقت نظرةً إلى وجه تشين زوي تشيان الجامد المعتم، فخفق قلبها خفقةً غامضة. حملت الشواح الصوفيّ ووضعت أمامه وقالت: «يا سيدي، هذه هديةٌ بسيطةٌ أقدمّها لك.» همهم تشين زوي تشيان وأشار إلى طاولةٍ مستديرة إلى جانب المائدة وأجابها قائلاً: «ضعيها هناك.»

وضعت سونغ ليان الهدية على الطاولة التي كانت مكدّسة بكافة أنواع الهدايا: خاتم ذهب، معطف من الفراء، ساعة سويسرية، وكلُّ هديةٍ مربوطةٍ بشريطٍ أحمر. ومرّةً أخرى خفق قلبها، وأحسّت بسخونةٍ تجتاح وجهها، فعادت وجلست في مكانها، وسمعت شوروراً إلى جانبها تقول: «طالما أنّها هدية، لماذا لم تربطها بشريطٍ أحمر؟» تظاهرت سونغ ليان بعدم سماعها، ورأت أنّ طريقةً تصيّدُها للأخطاءٍ مقبولةٍ في الحقيقة، إلا أنّها كانت شاردةً الذهن طوال اليوم.

كانت سونغ ليان مدركة أنّها أغضبت تشين زوي تشان، وهذا الأمرُ الوحيدُ الذي لم تكن تودُّ أن تفعله، فأجهدت نفسها محاولة أن تصلح الموقف، وأن تجعلهم يرون مكانتها المميزة لديه، لم تكن قادرة على أن تكون خنوعة، ولهذا قالت له والابتسامةُ تعلق وجهها: «يا سيدي، بما أنّ اليومَ يومُ ميلادِك السعيد، وهديتي متواضعة، لم تكن خاتمَ ذهبٍ أو معطفاً من الفراء، فسأقدّمُ لك هديةً أخرى.» قالت ذلك ووقفت أمامه وأحاطت رقبتَه بذراعيها، وقبلته قبلةً على خده، وقبلته على الخد الآخر. أصاب الدهولُ الحاضرين وتطلعوا إلى وجهه الذي تضرّج من الحرج، وكاد أن يقول شيئاً، لكن لم يعرف ماذا يقول، إلى أن دفعَ سونغ ليان بعيداً وقال بلهجةٍ حادة: «أظهري قليلاً من الاحترامِ أمام الناس.»

(5)

في الواقع كان ردُّ الفعلِ الذي بدرَ عنه طبيعياً تماماً، لكن سونغ ليان لم تتوقعه، فوقفت مُحدِّقُ إليه بعينين خاويتين مذعورتين، ثم ما لبثت بعد برهة أن أدركت ما حدث، فغطَّت وجهها حتى لا يروا دموعها المنسابة، وسارت خارجاً وهي تبكي بصوتٍ رقيقٍ كالحريرِ المشقوق، وسمعوها تقول: «ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟»

ورغم أن الخادِمات رأين بأعينهن ما جرى على العشاء، فإنَّهن أدركن أنَّ تغييراً كبيراً سيطرُ على حياتها. إلى أن حلَّ الليل، وذهبت خادمتان إلى البوابة لإنزالِ المصابيح الحمراء المعلقة، قالت إحداهن: «أين سيمضي السيد الليلة؟» فكَّرت الأخرى وأجابت: «لا أدري، أليس الأمرُ متوقفاً على متعته، مَنْ يمكنه التخمين أين سيمضي ليلته؟»

كانت المرأتان تجلسان متقابلتين، مي شان وسونغ ليان. كانت مي شان في أبهى زيتها؛ رسمت حاجبيها، وطلت شفيتها بأحمر شفاه من ماركة (يان لي)، ووضعت على ركبتيها معطفاً من الفراء غالي الثمن، وكانت سونغ ليان قد استيقظت من النوم، تحمل بين أصابعها سيجارة تدخنها ببطء وعيناها مغمضتان نصف إغماضة. الغريب في الأمر أنَّهما

كانتا صامتين، تستمعان إلى دَقَاتِ ساعةِ الحائط، وكلُّ منهما مشغولةُ البالِ بهومٍ تخصُّصها، وكأَنَّهما شجرتان متقابلتان تحتضنانِ أسراراً خاصة، كان هذا شيئاً دائماً الحدوثِ عبرَ التاريخ.

- انتبهت إلى أنَّ عصبيتك ازدادت هذان اليومان، هل جاءتك الدورةُ الشهرية؟

- ما علاقة هذا بأي شيء، دوري ليست منتظمة، لا أدري متى تأتي ومتى تنتهي.

- النساءُ الذكياتُ لا يكرنَّ دقيقاتٍ في هذا الأمر، ألم تأتِكِ هذا الشهر؟ ربما تكوني حاملاً.

- بالطبع لا، كيف أكون حاملاً؟!

- لا بد أن تكوني حاملاً، إنَّ تشين زوي تشيان نمر، ارفعي خصرك قليلاً في المساء وسترين، لا أخدعك.

- مي شان! إنَّكِ جريئةٌ للغاية، ما هذا الذي تقولينه؟

- أليس الأمرُ هكذا؟ لا جدوى من التمويه، إن لم تنجبي طفلاً للعائلة فالأيامُ المرَّةُ تنتظرك، وكلُّنا سواء في هذا.

- مضت فترة منذ أن جاءني تشين زوي تشيان، ليفعلَ ما يحلو له، لا أهتم.

- إنَّكِ لم تصلي إلى تلك المرحلة بعد، أمَّا أنا فأخبرته مباشرة، إن مرَّت خمسة أيام ولم يأتني، سأبحث لي عن رجلٍ آخر، لا يمكنني أن أمضي أيامي

وحيدة. إنني أكثر من تعذُّبه، يخافني ويكرهني ويريدني، لكنني لا أخافه.

- يا له من أمرٍ ممل، على كل حال هذا لا يهمني، ولا أفهم من أي طينةٍ جُبلت النساء؟ ماذا هن؟ هن كلبات، قطط، أسماك، فئران، هن شيء، إلا أن يكن بشراً.

- لا ترهقي نفسك ولا تحمليها فوق طاقتها، ولا تجزعي من معاملته لكِ بفتور، سيأتيك في النهاية، إنك أكثر منا شباباً وحيويةً وثقافة، فإن ترككِ وذهب إلى شو رو أو جوه يون سيكون هو الغيبي، فخصراهما على وشك أن يكونا متيسين وثخينين كجردلين، ثم ماذا يعني أن تقبله أمامنا؟

- إنك مزعجةٌ حقاً، لستُ أقصد هذا، بل أتحدثُ عن نفسي.

- لا تفكري في الأمر، لا يستحق، إنه يتظاهر بالرصانة قليلاً، لكن إذا كنتِ معه في الفراش، وقبّلتني وجهه أو عضوه فسيكون راضياً كلَّ الرضا.

- توقفي، يا للقرف!

- حسنٌ تعالي معي إلى مسرحِ الزهور، سيمثلُ تشينغ يان تشيو (دموع الجبل المقفر)، ما رأيك أن نرفه عن أنفسنا قليلاً؟

- لن أذهب، لا رغبة لي في الخروج من المنزل، إن قلبي مفتور، ومهما فعلت سأظلُّ حزينة، لا جدوى من الخروج.

- لا تريدن أن ترافقيني، وأنا جلستُ معكِ وتحدثتُ كلَّ هذا الحديث.

- أي متعة سأجلبها لك إن ذهبْتُ معك، خذي تشين زوي تشيان،
وإن لم يكن لديه مزاج، اذهبي مع ذلك الطبيب.

صُعِقَتْ مِي شان للحظائِ من هولِ ما سمعته، واحمرَّ وجهُها
على الفور، ثُمَّ حملت معطفَها ووشاحَها ونهضت واقتربت من سونغ
ليان وحَدَقَتْ إليها، وبحركةٍ يَدٍ أوقعت السيجارةَ من شفتيها وداست
عليها. وقالت لها بلهجة حادة: «هذا الأمرُ ليس مزحة، سأقطعُ لسانك
إن تفوَّهتِ بمثلِ هذه التَّرهات، أنا لا أخافُ منكم، ولا أخافُ من أحد،
ومن يفكِّرُ في إيذائي فلن يستطيع ولا حتى في الأحلام!»

وكما هو متوقع جاء في بو برفقة صديقٍ ليعرفه بسونغ ليان، وقال لها
إنَّه مُعلِّمُ الناي، فارتبكت لأنَّها لم تأخذ أمرَ تعلُّمِ الناي على محمل الجد.
تأملت ذلك المُعلِّم، كان شاباً ذا بشرةٍ بيضاء وقصبةٍ شعرٍ قصيرة، يشبه ولا
يشبه طالباً في الوقتِ ذاتِه، وكانت حرَّكته تتسم بالحرَجِ والتحفِظ، ومن
اسمه علمت أنه الابن الثالث من عائلة قو، ولأكبر تاجر حرير في المنطقة.
رأتهما سونغ ليان عبر النافذة قادمين يمسكُ كلُّ منهما بيد الآخر. وكان
مظهرُ الرجلين وهما سائران في الطريق ممسكين بأيديهما يمنحها شعوراً
غريباً ومنعشاً في الوقتِ ذاتِه، هكذا أحسَّت.

- «من الجيد أن أراكما صديقين مقربين، فلم أرَ رجلين متشابهين
الأيدي من قبل.» قالت سونغ ليان مبتسمة. بدا على في بو الحرَجُ فردَّ
قائلاً: «إننا صديقان منذ الصغر، ودرسنا معاً.» وكان وجهُ السيد قو أشدَّ
خجلاً. وفكَّرت سونغ ليان أن هذا المُعلِّمَ مثيرٌ للاهتمام، فأبي نوعٍ من
الرجالِ هذا الذي ينجل ويحمرُّ وجهه بسهولة! قالت سونغ ليان: «ليس

لدي صديقٌ جيدٌ وأنا في هذا العمر.»

قال في بو: «إنَّ هذا ليس غريباً، فأنت وحيدةٌ ومزهوَةٌ بنفسِك، من الصعبِ التقرُّبُ منك.»

سونغ ليان: «إنك مخطيء، أنا وحيدةٌ ولستُ مزهوَةٌ، لا بد أن يكون ثمة ما أملكه، فما الذي أملكه لأكون كذلك؟»

أخرج في بو نايًا من حقيبة ناي سوداء وقال: «هذا من أجلك، وقد أهداه لي السيد قو في البداية، كما يقول المثل.. يُقدَّمُ إلى بوذا زهوراً استعارها.» أخذت سونغ ليان الناي ونظرت إلى المُعلِّم الذي أوما لها وابتسم. قرَّبت الناي بشكلٍ أفقي إلى شفثيها ونفخت نفخة ثم قالت: «أخشى أني غبية ولن أتقنه.»

- العزفُ على الناي بسيطٌ للغاية، طالما عزفتِ بقلبك، لا قواعد لتعلِّمه.

- أخشى أن قلبي عاطل، فهو مثل حبات الرمال التي تتطايرُ لا يمكن جمعها.

ابتسم السيد قو مجدداً وقال: «سيكون الأمر صعباً، فأنا أهتم بعزفك، لا يعنيني قلبك.»

جلس في بو ونظر إليها، من ثمَّ نظر إلى السيد قو، ودفته الفريد يلعب في عينيه.

- في الناي سبعُ فتحات، لكلِّ فتحةٍ نغمةٌ تعبرُّ عن شعورٍ ما، وتناغمٌ تلك النغمات لطيفٌ، وشجي، ولا بد لعازفِ الناي أن يملك

هذين الإحساسين؛ نظر إليها السيد قو بتحفظ شديد وقال: «هل لديك الإحساسان؟» فكّرت سونغ ليان وقالت:

- أخشى أن لديّ الثاني فقط.

- لا بأس، الشَّجْوُ عاطفة، إن كان قلبك خاوياً فلن تستطيعي عزفَ الناي.

- حَسَنٌ، اعزفْ لنا مقطوعة أولاً. لم يرفض السيد قو طلبها، وتدفق نغمُ الناي رقيقاً ساحراً، شجياً ومؤثراً. فقال في بو وهو مغمض العينين: «هذه معزوفةٌ شجن الخريف.»

في تلك اللحظة طرقت فوزي خادمة شورو النافذة، ونادت على فيّ بو بصوتٍ عالٍ: «أيها السيد، تريدك السيدة أن تذهب إلى حجرة الضيوف لاستقبال ضيف.»

قال في بو: «مَنْ؟»

قالت فوزي: «لا أعرف، السيدة تريدك أن تذهب بسرعة.»

قطّب في بو حاجبيه وقال: «ليأتِ الضيفُ هنا.»

ظَلَّت الخادمة تطرُق النافذة وتقول: «تريدك السيدة أن تذهب، إن لم تذهب ستشتمني.» شتم في بو بصوتٍ هادئ: «ياله من إزعاج.» ثم نهض مكرهاً وشتم مرةً أخرى: «مَنْ هذا الضيف؟ اللعنة.»

سأله السيد قو بترددٍ وارتباك: «هل سأكملُ الدرس؟» فلوّح في بو

بيده وقال: «بالطبع، سأذهبُ لأرى ماذا يجري.»

ظَلَّتْ سونغ ليان والسيد قو صامتين لا يعرفان ماذا يقولان. ابتمت سونغ ليان فجأة وقالت: «كذب.» دُهِشَ السيد قو وقال: «مَنْ الكاذب؟» استعادت سونغ ليان اترانها وقالت: «لا أقصدُك أنت، لا تفهم.» كان السيد قو مضطرباً في جلسته وقلقاً، وأدركت سونغ ليان أن وجهه يتضجَّرُ بالحُمرةِ مجدداً، وكانت تضحك في سرِّها وتفكِّرُ أنَّ سيِّداً من عائلةٍ ثريةٍ له مثل هذا الوجه الرقيق، لا بد أن يتميَّزَ بالخجلِ مهما كان الأمر. تأملته بعطفٍ وقالت: «أكمل عزفك.» نظر السيد قو إلى الناي في يديه ثم أدخله في حقيبتِهِ السوداء وقال بصوتٍ خفيضٍ: «لقد انتهيت من العزف، لا مزاج لي، وقد انتهت المعزوفة كذلك. المعزوفة جميلة لكنني محبط، هل تفهمين ما أعنيه؟ لا أعزف جيداً حينها يغادر في بو.»

استأذن السيد قو على الفور، وأوصلته سونغ ليان إلى الحديقة، وقلَّبها مفعماً ناحيته بامتنانٍ لم يكن لائقاً أن تظهره، أبطأت خطواتها وضغطت على صدرها ثمَّ انحنت انحناءةً خفيفةً وتمنَّتْ له حظاً سعيداً. سألتها: «متى سيكون درسنا الثاني؟» هزَّتْ رأسها وقالت: «لا أعرف.»

فكَّرَ السيد قو لحظةً ثم قال: «سأرتب مع في بو، إنه يحسنُ معاملتكِ للغاية، كما أنه يثني عليكِ دائماً أمام أصدقائنا.»

تهتدت سونغ ليان وردت: «ما الفائدة من ذلك؟ لا يوجد شخصٌ يُعتمدُ عليه في هذا العالم.»

وما أن عادت سونغ ليان إلى حجرتها، حتى اندفعت جوه يون إليها كالريحِ العاصفةِ وقالت إنَّ في بو والزوجةَ الكبرى قد تشاجرا. في البداية دُهِشَتْ سونغ ليان، ثمَّ ابتمت ابتمامةً فاترةً وقالت: «كنتُ أعلمُ أنَّ

- اذهبي وتوسطي بينهما.

- لم أتوسط بينهما؟ إنها أمُّه، فلتشاجر معه كما يجلو لها، ما شأني؟

- ألا تعلمين أنها تشاجرا بسبيك؟

- هه، وهذا أمرٌ أغرب، إنَّ ماءَ البئر لا شأنَ لها بهاءِ النهر، فما شأني

أنا بهما؟

رمقتها جوه يون بنظراتٍ استنكاريةٍ وقالت: «لا تظاهري بعدمِ

المعرفة، تعلمين لم تشاجرا.»

لم تتمالك سونغ ليان نفسَهَا وصرخت بصوتٍ حاد: «ما الذي أعرفه؟

ما أعرفه أتمها لا تطيق أن يحسن أحدٌ معاملتي، مَنْ تظنني؟ أم أنها تظن أني

أقيمُ علاقةً مع ابنها؟ إنَّه لأمرٌ مملٌ ومقرف، ما هذا الملل؟» أنهت حديثها

وبكت.

كانت جوه يون تقضمُ البذر، وفي تلك اللحظة أعطت علبَةَ البذر إلى

يان أر التي كانت تقف جانباً، وابتسمت لسونغ ليان ودفعتها دفعةً خفيفةً

وقالت: «لا تغضبي، إنَّ الإنسانَ المستقيمَ لا يخشى شيئاً، ولا يخاف إن

طرقت الأشباحُ بابَه، لم أنتِ خائفة؟»

- طالما قلتِ ذلك، يبدو الأمرُ وكأنني خائفةٌ من شيءٍ ما. إن كنتِ

تريدين التوسطَ بينهما اذهبي، لن أذهب، لا مزاج لي.

- سونغ ليان، كيف لك أن تكوني قاسيةً الفؤاد، كان تخميني

صحيحاً!

- إنَّكَ تجامليني. لتعلمي أنَّه ليس باستطاعتِكَ أن تخرجي قلبَ المرءِ
لتعرفي ما به، تعلمين بالضبط مَنْ قاسي القلب.

في اليوم التالي، صادفتهُ سونغ ليان في الحديقة، كان يسيرُ حاملاً
بلا حيوية، ويعبثُ بولاعةٍ يحملها. تظاهرَ أنَّه لم يرها، ولكنها تعمَّدت
أن تناديه، ووقفت تتحدث معه كما اعتادت. سألته: «مَنْ زاركَ البارحةُ
وعطلَّ درسي؟»

ابتسم في بومرارة وقال:

- لا تتظاهري بعدمِ المعرفة، الكلُّ يعلمُ أنني تشاجرتُ مع والدتي
البارحة.

- لم تشاجرتما؟

هزَّ رأسه ومضى يعبثُ بالولاعة، يشعلها ويطفئها، ثم نظر حوله
بفتورٍ وقال:

- الجلوس في المنزل لفترةٍ طويلةٍ يُضجرني، أريدُ أن أخرجَ وأهرب،
الخارجُ أفضل، أكثرُ حرية، وأكثرُ حيوية.

- فهمت، أنتَ خائفٌ منها بعد هذا الشجار.

- لستُ خائفاً، إنني أخافُ الشجار، أخافُ النساء، النساءُ مخيفاتُ
بحق.

- تخافُ النساء؟ إذنٍ لم لا تخافُ مني؟

- أخافُ منك قليلاً، لكنَّكَ مختلفةٌ عنهن، لذلك أحبُّ أن أزورك.

فيما بعد فكَّرتِ سونغ ليان في تلك الجملة التي صدرت عنه دون أدنى انتباه... «أنتِ مختلفةٌ عنهن». وأحسَّت أنَّ في بو يمنحها شيئاً من المواساة، مثلٌ بصيصٍ من خيوطِ ضوءٍ في نهارِ شتاءٍ تحملُ قليلاً من الدفء.

ومنذ ذلك الوقت، كان قلماً يزورها، وبدا أن تجارتها كانت لا تسير بشكلٍ جيدٍ كذلك، لأنَّ مظهره كان يبدو دائماً حاملاً مغتماً. وكانت تراه فقط على المائدة، وتطفو أمام عينيها بين حين وآخر صورةٌ مميَّ شان والطبيب وهما يداعبان بعضهما بأرجلهما أثناء لعب الماجيانغ، فكانت لا تتمالكُ نفسها وتسترقُّ النظرَ إلى الأسفل وتنظرُ إلى قدميها، ربما كانتا تتجهان ناحيته. وكان هذا يبعثُ فيها الخوفَ والإثارةَ في الوقتِ ذاته.

في ذلك اليوم زارها في بو فجأة، وكان يقف في مكانه يفركُ يديه وينظرُ إلى الأسفل. وإذ ظلَّ ساكناً، ضحكت سونغ ليان وقالت له: «أيُّ دواءٍ تحمله في قرعك؟ ما لك لا تتكلم؟»

- سأسافر بعيداً.

- ألسْتَ تسافرُ دائماً؟

- سأسافرُ إلى يونان هذه المرَّة، سأعملُ في تجارة التبغ.

- وماذا في ذلك، طالما لن تعمل في تجارة الأفيون فذلك أمرٌ جيد.

- لقد قرأ لي راهبٌ رفيعُ المقام الطالع أمس، وقال لي إنَّ رحلتي هذه ستكون مساوئها أكثر من منافعها. لكني لا أصدِّقُ قراءة الطالع، وإن كان حدسي ينبئني بأن كلامه على قَدْرِ من الصحة.

- حَسَنٌ إِنْ كُنْتَ تَصَدَّقُهُ فَلَا تَذْهَبِ. سَمِعْتُ أَنَّ هُنَاكَ عَصَابَاتُ تَقْتُلُ النَّاسَ.

- لَا بَدَّ أَنْ أَذْهَبَ. أَوْلَا لِأَنْنِي أُرِيدُ السَّفَرَ، وَثَانِيًا لِكَسْبِ الْمَالِ، إِنْ اسْتَمَرَ الْوَضْعُ عَلَى هَذَا الْمَوَالِ سَوْفَ تَتَبَدَّدُ أَمْوَالُنَا تَمَامًا، كَمَا أَنَّ وَالِدِي يَكْبُرُ فِي السَّنِ، إِنْ لَمْ أَتَدْبِرْ شُؤُونََ الْمَنْزَلِ فَمَنْ سَيَتَدْبِرُهَا؟

- كَلَامُكَ مَنْطِقِي. أَذْهَبُ إِذْنًا، إِنْ جَلُوسَ الرَّجُلِ فِي الْمَنْزَلِ مُخَالَفٌ لِلطَّبِيعَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

حَكَ فِي بُو رَأْسِهِ وَصَمَّتْ بَرَهَةَ ثُمَّ قَالَ: إِنْ سَافَرْتُ وَلَمْ أَعِدْ، هَلْ سَتَحْزِنِينَ؟

غَطَّتْ سُونِغَ لِيَانِ شَفْتَيْهِ بِيَدِهَا عَلَى الْفُورِ وَقَالَتْ:

- لَا تُجَلِّبِ النَّحْسَ لِنَفْسِكَ.

أَمَسَتْ يَدَهَا وَقَلَبَهَا ظَهْرًا لِبَطْنِهَا، ثُمَّ أَعَادَ التَّقْلِيلَ، وَتَأَمَّلَهَا قَائِلًا:

- لِمَ لَا يُمْكِنُنِي قِرَاءَةُ الْكُفِّ؟ لَا يُمْكِنُنِي اسْتِشْفَافُ أَيِّ شَيْءٍ. أَوْ رَبِّمَا أَنْتِ قَوِيَّةٌ وَيَامَكَانِكَ إِخْفَاءُ كُلِّ شَيْءٍ.

سَحَبَتْ سُونِغَ لِيَانِ يَدَهَا وَقَالَتْ:

- كَفِّ عَنِ هَذَا، إِذَا رَأَيْتِ يَانَ أَرَفَلْنَ تَتَوَقَّفُ عَنِ الثَّرَاةِ.

- إِنْ وَاتَتْهَا الْجِرَاءَةُ سَاقَطْعُ لِسَانِهَا وَأَتَنَاوَلَهُ فِي حِسَاءٍ.

وَدَّعَتْهُ سُونِغَ لِيَانِ فِي الْمَرِّ وَرَأَتْ السَّيِّدَ قُو يَتَجَوَّلُ فِي الْحَدِيقَةِ.

فَسَأَلَتْ فِي بُو: «لِمَ كَانَ فِي الْخَارِجِ؟»

ضحك في بو وقال:

- إنه يخافُ النساءَ أيضاً، كما أنه سيسافرُ معي إلى يونان.

عبست سونغ ليان وقالت:

- إنكما مثل زوج وزوجة، أينما يذهب أحدكما يتبعه الآخر.

- ما بك؟ هل تغيرين؟ سأخذك معي إن كنتِ تودين الذهاب، هل

تودين الذهاب؟

- أريد الذهاب، لكنني لا أستطيع.

- لماذا؟

دفعته سونغ ليان وقالت:

- لا تكن أحمق، أنت تعلم لماذا لا أستطيع الذهاب. إرحل الآن،

هيا.

رأته سونغ ليان يخرج برفقة السيد قو من بوابة القمر ويختفيان. لم

يكن شعوره واضحاً حياً هذا الوداع، لم تعلم إن كان حزناً لمفارقتها

أم لا مبالياً، إلا أن ثمة أمراً أدركته، أنها ستغدو أكثر وحدة برحيل في بو.

(6)

كانت سونغ ليان تدخنُ حينما عاد تشين زوي تشيان، فأطفأت السيجارة على الفور، إذ كان يكره النساء اللواتي يدخن. خلع قبعته ومعطفه، وانتظر أن تعلقها سونغ ليان على المشجب. جاءت سونغ ليان ناحيته بخطواتٍ متثاقلةٍ وقالت: «مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن أتيت يا سيدي.»

- لم تدخنين؟ إن النساء يفقدن أنوثتهن عندما يدخن.

علقت سونغ ليان معطفه، وارتدت القبعة وقالت بفرح: «بل أنا أقل أنوثة الآن أيضاً، ما رأيك؟»

التقط تشين زوي تشيان القبعة وعلقها وقال: «إنك مشاغبة، وتبالغين في الأمور، لا ألوم الآخرين حينما يقولون إنك كذلك.»

ردت سونغ ليان على الفور: «ماذا يقولون؟ من يقول؟ هم أم أنت؟ لا أهتم لكلامهم، وإذا كان سيدي من يقول ذلك، فأنت لا تتحملني، إلا إذا مت فلا غبارَ حينها على كلامي وتصرفاتي.»

قطب تشيان زوي تشيان حاجبيه وقال: «حسنٌ حسنٌ، لم أنتن متشابهات؟ تثرثن إلى أن تذكرن الموت، وكأنكن تعشن حياةً تعيسة، أنا

لا أحبُّ هذه الطريقة.»

أمسكت سونغ ليان كتفيه وقالت: «حَسَنٌ لِنَ أَذْكَرَ الْمَوْتَ بَعْدَ الْآنَ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي يَقُولُهُ شَخْصٌ طَيِّبٌ هُوَ فِي الْوَاقِعِ كَلَامُ شَخْصٍ مَفْطُورِ الْقَلْبِ.» أجلسها تشين زوي تشيان على حجره وقال: «هل لا زلتِ منزعجة من ذلك الأمر؟ لقد كان مزاجي سيئاً طوال يوم عيد ميلادي، ولا أدري ما السبب، لا يكون الرجل سعيداً حينها يكمل خمسين عاماً من عمره.»

- آه، أيُّ أمر؟ لقد نسيته.

ضحك تشين زوي تشيان وقرصَ خصرها وقال: «أيُّ أمر؟ لقد نسيته أيضاً.»

أحسَّت سونغ ليان أن جسده غريبٌ للغاية بعد مرور عدة أيام لم يجتمعا خلالها معاً، وكانت تفوح من جسده رائحةُ زيتِ النعناع، وحمَّنت أنه كان يقضي تلك الأيام عند شورو، لأنها الوحيدة التي تحب أن تستخدم زيتَ النعناع في التدليك. التقطت سونغ ليان من جانبِ السرير زجاجةَ عطرٍ ورشَّت قطراتٍ على جسده، ثُمَّ قطراتٍ على جسدها. فسألها تشين زوي تشيان: «أين تعلمتِ ذلك؟»

- لا أريدُ أن تفوح رائحتهن من جسديك.

رفس تشين زوي تشين اللحافَ وقال:

- لا زلتِ متغطرة.

- حتى لو أردت أن أكون متغطرة لما استطعت. ثُمَّ سألته فجأة:

«هل في بو ذاهب إلى يونان بالفعل؟»

- نعم ليعمل في تجارة التبغ، وسأذهبُ معه.

أكملت سونغ ليان حديثها:

- ثُمَّ إِنَّ عَلاقته جيدة جداً بالسيد قو هذا.

ضحك تشين زوي تشيان وقال:

- لَمْ تستغربين الأمر، ثمة أمورٌ بين الرجال أنتِ لا تفهمينها. تنهدت

سونغ ليان ولمست جسد تشين زوي تشيان النحيل، ولاحَ في ذهنها خاطراً

سري، فكَّرت، كيف سيكون جسدي في بو وهو مستلقٍ تحت الغطاء؟

كانت سونغ ليان امرأة ذات خبرة جنسية، إلا أنَّها لم تنس تلك المرأة

الاستثنائية؛ كان جسد تشين زوي تشيان ينضجُ عرقاً غزيراً، وجهه

بدونِ فائدة. وأدركت بحرصِ الرعبِ والحيرة العميقين الدفينين في

عينيه. «ما الذي حصل؟» واستشعرت تغيرَ نبرة صوتِهِ إلى نبرة خوفٍ

وضعف. كانت أصابعها تنسابُ على جسده كالماء المتدفق، وشعرت أنَّ

هذا الجسد تحت أصابعها وكأنه انفجر ثُمَّ ارتحى في نهاية المطاف، وابتعد

عنها شيئاً فشيئاً. وأدركت أنَّ ثمة مأساة ما عالقة به، وانتابها إحساسٌ

غريب، لم تتبين إن كان فرحاً أم حزناً، بل أحسَّت بالخواء الشديد.

لمست وجهه وقالت: «إنَّكَ تَعِبٌ للغاية، ثُمَّ قليلاً.»

- لا لا، لا أصدق.

- ما العملِ إذن؟

تردد تشين زوي تشين ثم قال:

- ثمة طريقة واحدة، لا أدري هل توافقين أم لا؟

- لا تهم موافقتي طالما ستكون راضياً.

اقترب بوجهه وعَضَّ أذنها وهمس لها بجملته، لكنها لم تفهم. همس لها مجدداً، ففهمت هذه المرة وصمتت واكتسى وجهها بحمرة. تقلبت وأعطته ظهرها، ووجهها في جانبٍ آخر مُعتم، وقالت فجأة: «ألن أكون في وضعية الكلب؟»

- «لن أجبرك ما دمت لا ترغين.» ظَلَّتْ سونغ ليان صامتةً، وجسدها ملتوٍ كقطة. ثم سمع تشين زوي تشين صوتَ نشيجٍ خفيضٍ فقال: «حَسَنٌ، لا داعي للبكاء.» ولم يتوقع أن يعلو نشيجُها وتنفجرُ في بكاءٍ حاد، «سأرحل إن بكيت أكثر.» ظَلَّتْ تبكي. أزاح اللحافَ ونزل من السرير وقال بينما يرتدي ملابسه: «لم أرَ في حياتي امرأةً عاهرةً مثلكِ تتظاهرُ بالعِفَّةِ والطهارة!»

بعد أن غادرها تشين زوي تشيان ينتفض غاضباً، ظَلَّتْ سونغ ليان جالسةً على السرير تبكي في العتمةِ فترةً طويلة، وراحت تتأمل ضوءَ القمرِ المتسرب من شِقِ الستارةِ على الأرض، مُشكِّلاً مدىً من برودةٍ على أعلاها، مدىً من خيوطِ الضوءِ البيضاءِ الشاحبة. وأنصتت إلى صوتِ بكائِها الذي كان لا يزال يلف أذنها ولم يتلاش، وإلى صوتِ الصمتِ الذي يغمرُ الحديقة. في تلك اللحظة تذكَّرت الجملة التي قالها تشين زوي تشيان قبل أن يغادر، فارتجفَ جسدها بحدة وضربت على اللحاف ضربةً

قويّة وصرخت في الغرفة المعتمة: «من العاهرة؟ بل أنتم أولاد الحرام!»

كان شتاء العام غربياً في منزل عائلة تشين، وكان ثمة الكثير من الأدلة التي تبرهن على هذه النقطة. كانت الزوجات الأربعة يرين تشين زوي تشين وقد ارتسمت على محياه بين حين وآخر علامات ودّ دافئة، وكانت كل واحدة منهن تدرك ما يجول في ذهن الأخرى، ويضمرن جميعاً نوايا سيئة. أمّا هو فكان يقضي ليلته عند جوه يون ويتركها في حالة مزاجية متعشبة طوال الصباح، وكانت الزوجات الأخريات يتأملنها بنظرات شكّ وريبة متسائلات كيف يا ترى تعتنى به وتمتعه ليلاً؟

وفي صباحاتٍ أخرى، تأتي مي شان بزوي الأوبرا وتستعيد ذكرياتها وتجلس تحت عريشة الوستاريا، وتؤدي الحركات بكل إتقانٍ وجدية، ويرى الخدم في الحديقة كمّيتها يرفرفان في النسيم، وظلّ جسدها الراقص كطيف فاتن.

قُرِعَت الطبول

تجمّع الناس على ضفة نهر جيانغ، في صمت
ضائعة في وحدتي، لا أنيس لي إلا ظلي، وحزني يتفاقم
تأملت الأمر وأيقنتُ

أنني امرأة جميلة تحيا حياة بائسة

كتمتُ دموعي وحزني سنين طويلة، يا لشقائي!

وأطلقوا عليّ لقب عاهرة

وإلى الآن، ومهما حاولتُ أن أتخلَّصَ من عذابِي، يبدو الأمرُ صعباً

من الأفضلِ إذن أن يصيرَ جسدي طعاماً للأسماك

يا دو شي نيانغ! امرأةٌ جميلةٌ مهيأةٌ للمجازفةِ بحياتها

وإن وهبتُ نفسي للموت، فلتكن مَيِّتي مهيبةً وطاهرة! (1)

أخذتُ سونغ ليان بالكلمات، فسارت نحو مي شان وأمسكت
بطرفِ فستانها وقالت: «توقفي، ستطير روجي إن واصلتِ الغناء، ما
الذي تغنيه على كلِّ حال؟» رفعت مي شان كُفَّها ومسحت البودرةَ عن
وجهها وجلست على المائدةِ الحجريةِ لتلتقطَ أنفاسها. ناولتها سونغ ليان
مندياً حريراً وقالت:

- إن نصفَ وجهكِ أحمرُّ والآخرُ أبيضُ كالعفاريت.

ردَّت مي شان:

- الإنسانُ يشبه العفريتَ تقريباً، الإنسانُ عفريت، والعفريتُ
إنسان.

- ماذا كنتِ تغنين؟ إنه غناءٌ يبعثُ على الحزن.

- «دو شي نيانغ» كانت آخرَ عرضٍ قدمته قبل أن أتركَ الفرقةَ
المسرحية، ودو شي نيانغ امرأةٌ أنهت حياتها منتحرة، لهذا يبعثُ الغناءُ على
الحزن.

- حسنٌ متى ستعلميني غناءَ تلكِ المقطوعة؟

1. تحكي قصة محظية في أسرة مينغ، وقعت في حب أحد السادة، ثم انتحرت بعد خيانتها لها.

حدجتها مي شان بنظرة وقالت:

- تقولينها بمنتهى السهولة، هل تريدين الانتحار أنتِ أيضاً؟ متى أردتِ الانتحار سأعلمك.

أذهل ردها سونغ ليان، وظلّت تحدّق إلى وجه مي شان الملطّخ بالألوان برهة، واكتشفت أنّها لا تكرهها، على الأقل ليس الآن، رغم أنها تتفوّه بكلامٍ يجرّحها. وكانت تعلم في قرارة نفسها أنّ لديها ومي شان وشو رو عدوةً مشتركةً هي جوه يون، لكن سونغ ليان أبت أن تكشف فكرتها.

انجهت إلى البئر المهجورة وألقت نظرةً وضحكت فجأةً وقالت:
«عفريت، بل هنا بالضبط يوجد عفريت، هل تعلمين من مات هنا؟»

كانت مي شان لا تزال جالسةً على الطاولة الحجرية وأجابتها:
- من سيموت؟ إمّا أنا، أو أنتِ.

- إنك تمزحين هذا المزاح السمج دائماً وتخيفيني.

ضحكت مي شان وقالت:

- هل تخافين؟ إنك لم تخوني زوجك، لم أنتِ خائفة؟ من خانت زوجها ماتت هنا، هذا ما جرى مع أجيال كثيرة من عائلة تشين.

خطت سونغ ليان خطوة إلى الوراء وقالت:

- يا له من أمرٍ مرعب، هل ألقينا في البئر؟

أشاحت مي شان بكمّها وقالت: «أنتِ تسأليني ثمّ أنا أسأل من؟»

اذهبي واسألِي العفاريت.» واتجهت مِي شان ناحية البئر ونظرت إليها فترة، ثُمَّ أَلَقَتْ بكلماتٍ في حوارٍ في الأوبرا: «الظلم - الموت - الشر - آه-»

واستمرتنا في الحديث إلى جانبِ البئرِ حتى تطرقتنا في الحديثِ إلى مرضِ تشين زوي تشيان الحُفي، فقالت مِي شان: «إِنَّ أَفْضَلَ مصباحِ زيتي له وقتٌ ويستَهلك، وأخشى أَنَّهُ لم يعد باستطاعتي إضافةَ الزيتِ إلى هذا المصباحِ بعد الآن. ثمة شر هائل في هذه الحديقة، وَقَدَرٌ جيدٌ أن يُقضى عليه، كما أَن تشين تزوي تشيان سيدنا يشبه كلباً في معلق لا يأكل ولا يسمحُ للفرس أن تأكل، ونحن مَن نعاني، وغرفنا حاوية.» ظَلَّت تتحدث إلى أن ذكرت جوه يون، حينها تميزت غيظاً وكَزَّت على أسنانها وبدأت في سبابها: «ذات الجسد الرخيص، انظري إليها كيف تتبخترُ بمرحٍ معه، ودت لو تلعق فتحة مؤخرته وتخبرك كم رائحتها عَطِرَةٌ ومذاقها حلو، هل تعتقد أن بإمكانها إثارة المشاكل حتى أهاجمها فتبكي وترجى.»

لكن سونغ ليان شردت، وكانت دائماً تسيطرُ عليها حالةٌ من الهديان الشبيهة بالكوابيس ما أن تقرب من البئرِ المهجورة، حيث ترسلُ مياهُ البئرِ المتقلبة العميقة نزرأ من لغة الموتى التي سمعتها بالفعل، وأحسَّت بالبخارِ العفنِ الباردِ المنبعثِ يغمُرُ روحها وبشرتها. «أنا أخاف.» هكذا صرخت سونغ ليان وارتدت على عقبها وولَّت هاربة، وسمعت مِي شان تقول في إثرها: «ما بك؟ أنا لا أخاف أحداً حتى لو وشيت بي، فكأنني لم أقل شيئاً.»

في ذلك اليوم عادت بي يون بمفردها إلى المنزل، فأدركت جوه يون

أَنْ ثَمَّةَ شَيْئاً مَا قَدْ حَدَثَ، سَأَلْتُهَا: «أَيْنَ بِي رُوْنِغُ؟»

أَلْقَتْ بِالْحَقِيْبَةِ إِلَى الْأَرْضِ وَقَالَتْ: «فِي الْمَسْتَشْفَى، لَقَدْ ضَرَبَهَا أَحَدُ

الْأَشْخَاصِ.»

لَمْ يَكُنْ لَدَى جَوْه يُونِ وَقْتُ السُّؤَالِ عَنِ التَّفَاصِيْلِ، فَاصْطَحَبَتْ خَادِمِيْنَ وَأَسْرَعَتْ إِلَى الْمَسْتَشْفَى. عَادُوا وَقْتُ الْعِشَاءِ، وَرَأَسَ بِي رُوْنِغُ مَضْمُودٌ بِشَاشٍ، وَاحْتَضَنْتُهَا جَوْه يُونِ وَأَجْلَسَتْهَا إِلَى الْمَائِدَةِ، حِينَهَا وَضَعَ الْجَالِسُونَ أَعْوَادَ طَعَامِهِمْ وَنَهَضُوا لِيَطْمَئِنُّوا عَلَى جُرْحِ الْفَتَاةِ. وَلَمَّا كَانَتْ بِي رُوْنِغُ أَكْثَرَ فِتَاةٍ يُحِبُّهَا تَشِيْنُ زُوِي تَشِيَانِ وَيَدُلُّهَا دَائِماً، فَقَدْ أَجْلَسَهَا عَلَى حِجْرِهِ وَسَأَلَهَا: «أَخْبِرِيْنِي مَنْ ضَرَبَكَ وَسَأَسْلُخُ جِلْدَهُ غَدًا.»

وَبِوَجْهِ تَكْسُوهِ التَّعَاسَةِ أُسْرَّتْ بِاسْمِ صَبِيٍّ، فَاسْتَشَاطَ تَشِيْنُ زُوِي تَشِيَانِ غَضَباً، وَسَأَلَ مِنْ أَيِّ عَائِلَةٍ هَذَا الصَّبِيُّ؟ وَكَيْفَ يَجْرُؤُ عَلَى ضَرْبِ ابْنَتِهِ؟ وَكَانَتْ جَوْه يُونِ تَقْفُ جَانِباً وَتَمْسُحُ دُمُوعَهَا، قَالَتْ: «سَأَلَهَا إِنْ كَانَ بَاسْتِطَاعَتِهَا إِخْبَارُنَا عَنِ سَبَبِ الشَّجَارِ؟» سَوْفَ أُبْحِثُ عَنِ الصَّبِيِّ غَدًا وَأَعْرِفُ تَفَاصِيْلَ مَا حَدَثَ، أَيُّ وَضِيْعٍ عَدِيْمِ الرَّحْمَةِ يَكُونُ ذَا سَلُوْكِ مَتُوْحَشٍ تَجَاهَ الْأَطْفَالِ هَكَذَا؟» وَإِذْ أَنْتَهتْ مِنْ كَلَامِهَا عَبَسَتْ شُورًا قَلِيْلًا وَقَالَتْ: «تَنَاوَلُوا طَعَامَكُمْ، إِنَّ شَجَارَ الْأَطْفَالِ فِي الْمَدْرَسَةِ أَمْرٌ طَبِيْعِيٌّ، ثُمَّ إِنَّهَا لَمْ تَتَأَذَّ بِشَكْلِ بَالِغٍ، وَسَوْفَ تَتَحَسَّنُ خِلَالَ أَيَّامٍ.»

رَدَّتْ جَوْه يُونِ: «مَنْ السَّهْلُ عَلَيْكَ قَوْلُ ذَلِكَ أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْكَبْرَى، لَقَدْ أَوْشَكَتِ الْفِتَاةُ عَلَى الْإِصَابَةِ بِالْعَمَى، كَمَا أَنَّ بَشْرَتَهَا حَسَّاسَةٌ وَرَقِيْقَةٌ لِلْغَايَةِ، فَهَلْ تَتَحَمَّلُ ذَلِكَ؟ ثُمَّ إِنَّنِي لَا أَلُومُ الصَّبِيَّ، إِنَّنِي أَلُومُ مَنْ دَفَعَهُ لِفَعْلِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسَاسِ، وَإِلَّا لَمْ أَكُنْ لِأَشْعَرَ بِالْمَرَارَةِ وَالْحَنَقِ، فَكَيْفِ

للصبي أن ينسلّ من خلف الشجرة ويلتقط غصناً ويضربها؟»

ردت مي شان وهي مستغرقة في سكب حساء الدجاج في صحنها:
«إنّ قوة ملاحظتك فائقة أيتها الزوجة الثانية، أيّ منطقي يتبعه الأطفال
في المشاحنات بينهم؟ دعي عنك كثرة الشكوك والوساوس فإنّها لا تثير
سوى الغم.»

ردّت جوه يون بفتور: «إنّ الغمّ قادمٌ لا محالة، كيف لي أن أتحمّل
الأمر؟ لا بد أن أكشف لبّ الموضوع.»

لم يتوقع أحد أن تأتي جوه يون في اليوم التالي إلى غرفة الطعام بصبيّ
سمين يسيل المخاط من أنفه. همست جوه يون بعبارة، ومن ثمّ دار الصبي
حول المائدة وحدّق إلى وجوه الجالسين وجهاً، وجهاً، وأشار فجأة إلى
مي شان وقال: «هي، هي، هي أعطتني يوان.» قلبت مي شان عينيها متبرمة،
ثم دفعت الكرسي وأمسكت الصبي من ياقة قميصه وقالت: «ما الذي
تقوله؟ ولم أعطيك يوان؟» صرخ الصبي محاولاً بيأس أن يفلت من
قبضتها: «نعم لقد أعطيتني يوان لأضرب تشين رونغ يي وتشين يي
يوان.» صفعته مي شان وقالت: «إنّك تهذي، ثم إنني لا أعرف كاذباً
صغيراً مثلك، من وراء تلك المكيدة؟»

حينها ظهرت جوه يون من بينها وابتسامتها لا تفارقها وقالت:
«حَسَنٌ لقد اعترف بما اقترّفه وأصبحتُ على بينة من الأمر.» ثم أخرجت
الصبي من غرفة الطعام.

بدت ملامح مي شان حزينة ومهانة، فألقت بالمعلقة على المائدة

وقالت: «عارٌ عليك! عيبٌ عليك!»

ردَّت جوه يون التي كانت إلى جانبها: «صاحبة العيبِ تعرفُ نفسها جيداً، وهل كنتِ تريدين أن أقف إلى جانبك وألْعُ عدوانك هذا؟» في نهاية المطاف لم يطق تشين زوي تشيان سماع أكثر من ذلك، وبدا الغضب في صوته: «لم أعد راغباً في تناول الطعام، اخرجوا من هنا، اخرجوا جميعاً من هنا!»

كانت سونغ ليان قد اتخذت موقفَ الغريبِ منذ بداية القصة إلى آخرها، كانت تراقبُ بفتورٍ ولم تتفوه بكلمة. وخبَّنت في الواقع منذ البداية أن مي شان من رتبت للأمر، وكانت تفهم أن مي شان من النساء اللواتي يجبن أو يكرهن بجنونٍ ولدرجةٍ مخيفة. ورأت أن ثمة ما هو قاسٍ وسخيفٌ وغيرٌ منطقي كذلك في هذا الأمر، ولكن ما يثيرُ الغرابة، أنها كانت متعاطفةً في قرارةِ نفسها مع مي شان وليس مع بي رونغ البريئة، وبالتأكيد ليس مع جوه يون. وفكَّرت لكم النساء غريبات! باستطاعتهن الحدس وفهم الآخرين، لكن ليس باستطاعتهن فهم أنفسهن!

(7)

ثم جاءت الدورة الشهرية مرةً أخرى، وهذه المرة جعلتها أكثرَ جزعاً وقلقاً. كانت تلك القطراتُ الأرجوانيةُ القذرة بالنسبة لها ضربةً قاضية، لأنَّها كانت تعلمُ في قرارةِ نفسها، أنَّ احتمالَ حملها أصبحَ صعبَ المنال، وبسبب تعامل تشين زوي تشيان لها بفتورٍ وعجزها أمامه، ألن تتحول إذن إلى نبتةِ عشبِ البط تطفو وحيدة في حديقةِ عائلة تشين إذا ما تحوّل هذا الأمرُ إلى حقيقة؟

وشعرت بنفسها تغدو مرهفةً العاطفةً يوماً عن الآخر ودموعها المرةُ تنسابُ دوماً. وفي إحدى المرات ذهبت إلى الحمامِ باكيةً لتتخلصَ من بعض النفايات، وإذا رأَتْ ورقَ قشٍّ خشناً مغموراً في البرازِ وطافياً، انطلقت بالشتيمة: «كسولة.» بدا أنَّ يان أر لن تتعلم مطلقاً استعمال سيفون الحمام الحديث، لأنَّها تنسى استخدامه بعد أن تنتهي من حمّامها. وما أن أوشكت سونغ ليان على شد السيفون، حتى ساورتها شكوكٌ وشعورٌ ما مباغت، فبحثت عن فرشاة، وأمسكت أنفها بإصبعيها ونكشت كرة الورق القش، فانبسقت الورقة وظهر على سطحها رسمٌ امرأةٍ مبهم، ورغم أنَّ الورقة ملوثةٌ بالماءِ والبراز، إلاَّ أنَّه بنظرةٍ واحدةٍ كان يمكن تبين صورة المرأة، كما

أَنَّهَا كَانَتْ مَرْسُومَةً بِاللُّوْنَيْنِ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، وَكَأَنَّهَا مَرْسُومَةٌ بِدِمَائٍ أَوْ
بشْيءٍ كَهَذَا.

أَدْرَكَتْ سُونُغَ لِيَانِ أَنَّهَا الْمَرْسُومَةُ، وَأَنَّ يَانَ أَرَّ وَجَدَتْ طَرِيقَةً أُخْرَى
وَأَلَقَتْ عَلَيْهَا تَعْوِيدَةً سَرًّا.

«تَمْنِينِ قَتْلِي! وَتُلْقِينِ بِي فِي الْحَمَامِ!» التَّقَطَّتْ سُونُغُ لِيَانَ كَرَّةً وَرَقِ
القَشِّ وَلَمْ تَلَقِ بِالْأَلِّ لِلْقَذَارَةِ، وَجَسَدُهَا يَرْتَعَشُ وَيَنْتَفِضُ بِغَضَبٍ مُتَأَجِّجٍ
إِزَاءَ تَصْرِفِ يَانَ أَرَّ اللَّثِيمِ، دَسَّتْ وَرَقَةَ الْقَشِّ الْقَذْرَةَ وَفَتَحَتْ بَابَ الْحِجْرَةِ
الصَّغِيرَةِ وَوَجَدَتْ يَانَ أَرَّ مُتَكِنَةً عَلَى السَّرِيرِ فِي قَبِيلُولَةِ قَصِيرَةٍ، وَكَانَتْ قَدْ
اسْتَيْقِظَتْ عَلَى صَوْتِ الْبَابِ: «مَاذَا تَفْعَلِينَ يَا سَيِّدَتِي؟»

قَذَفَتْ سُونُغُ لِيَانَ وَجَهَّهَا بِوَرَقَةِ الْقَشِّ، فَقَالَتْ يَانَ أَرَّ: «مَا هَذَا؟»
وَإِلَى أَنْ أَدْرَكَتْ بِوَضُوحٍ مَا هِيَ مَا قَذَفَتْ بِهِ اسْوَدَّ وَجْهَهَا، وَتَلَعَثَتْ قَائِلَةً
إِنَّهَا لَيْسَتْ مَنْ اسْتَعْمَلْتَهُ. كَانَتْ سُونُغُ لِيَانَ غَاضِبَةً إِلَى حَدِّ لَمْ تَكُنْ قَادِرَةً
فِيهِ عَلَى الْحَدِيثِ، وَامْتَزَجَتْ نَظْرَاتُ غَضَبِهَا بِبِأَسْهَاءِ.

انْكَشَمَتْ يَانَ أَرَّ عَلَى السَّرِيرِ وَلَمْ تَجْرَأْ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهَا وَقَالَتْ: «كُنْتُ
أَتَسَلَّى لَيْسَ إِلَّا، وَلَمْ أَرَسْمِكِ أَنْتِ.»

— مَنْ عِلْمِكِ هَذِهِ الْأَعْيَابُ الْمَاكِرَةُ؟ هَلْ تَرِيدِينَ أَنْ تَقْتَلِينِي
وَتَصْبِحِي زَوْجَةً؟

لَمْ تَجْرَأْ يَانَ أَرَّ عَلَى الرَّدِّ، وَالتَّقَطَّتْ وَرَقَةَ الْقَشِّ كَيْ تَلْقِيَهَا مِنَ النَّافِذَةِ.
فَزَعَقَتْ فِيهَا سُونُغُ لِيَانَ بِصَوْتٍ حَادٍ: «لَا تَرْمِيهَا!» اسْتَدَارَتْ يَانَ أَرَّ
وَقَالَتْ فِي مَحَاوِلَةٍ لِلدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِهَا: «لَكِنَّ هَذِهِ وَرَقَةُ قَذْرَةٍ، لَمْ يُبْقِ عَلَيْهَا؟»

ضَمَّت سونغ ليان ذراعِها ومضت تذرُعُ الحجرةَ وقالت: «اتركيها، لها فائدة. لديك الآن حلّان فاختاري ما يروقُّ لك. الحلُّ الأول معروف، أن يري السيد والجميع هذا الشيء القدر، ولا أريدك أن تخدمني بعد الآن، كيف أدعك في خدمتي؟ إنك تريدان قتلي. وثمة حلٌّ آخر بيني وبينك.»

قالت يان أر بخوف: «كيف؟ سأفعل ما تريدان إلا أن تطرديني.» ابتسمت سونغ ليان ابتسامة لطيفة وقالت: «حَسَنُ الأمرُ بسيط، كُلِّي الورقة.»

ذُهِلَّت يان أر وردت: «سيدي ماذا تقولين؟»

أدرات سونغ ليان وجهها تجاه النافذة وقالت ببطء شديد: «كُلِّي الورقة!» أَحَسَّت يان أر بجسدها واهناً، فجثت على ركبتيها وغطت وجهها وانخرطت في بكاءٍ حادٍ وهي تقول: «واضربيني حتى الموت أيضاً!»

ردَّت سونغ ليان: «إنَّ ضربكٍ بالنسبة لي بلا جدوى، كما أنَّ ضربكٍ يعني تلوّثَ يدي. لا تلوميني كذلك، فما أفعله يسمّى كما يقول المثل كما تدينُ تُدان.»

ظَلَّت يان أر مقرّفةً تبكي عند زاوية الجدار، فقالت سونغ ليان: «سيتسنى لك أن تصلحي خطأك الآن، إن لم تأكلي الورقة فانصرفي، واغربي عن وجهي.» مضت يان أر تبكي فترةً طويلة، ثم فجأةً مسحت دموعها، وقالت وهي تنشج: «حَسَنُ، سأكلُ الورقة، سأكلُها.» بعدها

التقطت الورقة ودستها في فمها مصدرة صوت تهوع غاضبٍ وحزين. نظرت إليها سونغ ليان نظرة فاترة، إلا أنها لم تشعر بأي لذة، ولم تعلم لم شعرت بخيبة الأمل، وبإشمئزازٍ حاد. «حقيرة.» نظرت إلى يان أر بقرف شديد وغادرت الحجرة الصغيرة.

في اليوم التالي مرضت يان أر مرضاً شديداً، واستدعي الطبيب لفحصها وقال إنها مصابة بالتيفوئيد. وكان وقع الخبر على سونغ ليان وكأن قلبها أصابته وخزاتٌ بفعل شيء ما مُسنن، وشعرت بألمٍ كليل. وانتشر الخبرُ كانتشارِ النار في الهشيم، وتناقش الخدمُ جميعاً في كيف أن سونغ ليان جعلت خادماتها تتناول ورق القش الملوث، وأن الزوجة الرابعة لا تبدو خبيثةً وماكرةً إلى هذا الحد، وأن حياة يان أر على المحك. طلب تشين زوي تشيان من أحدهم أن ينقلها إلى المستشفى، وأكد على مدبر المنزل قائلاً: «أعطاها ما تحتاجه، وسأتكفلُ بكلِّ مصاريفها، لا أريد أن يشمت الناس ويقولون إننا لا نهتم بخدمنا.» كانت سونغ ليان مخبئةً في حجرتها حين حُملت يان أر إلى المستشفى، ورأتها عبر فتحة الستارة مستلقيةً على النقالة بالكاد تلتقط أنفاسها وفروة رأسها مكشوفةً إثر فقدِها شعرها، ومظهرها يخيف المرء.

وأحسَّت بعينيها الذابلتين الصفراوتين تحترقان ستار نافذتها وتوخزان بثقلِ قلبها. ثم جاءها تشين زوي تشيان ورآها تفقد شاردة، فقال:

- إنك ماكرة! أثرت القيل والقال وقضيت على سمعة العائلة.

- هي التي أرادت إيذائي أولاً، وتلقي عليَّ اللعنات كل يومٍ لأموت.

في تلك اللحظة طفح به الكيل وقال:

- هل تساوين نفسك بها؟ أنتِ سيدة، وهي خادمة! وبعد فترة

استغلق عليها الكلام فقالت بتخاذل:

- ومع ذلك لم أكد أقصد أن أصيِّبها بالمرض، هي مَنْ جلبت ذلك

لنفسها، هل لا بد أن ألام على كلِّ شيء؟ أشاح تشين زوي تشيان بيده

وقال بنفادٍ صبر:

- كفى، إنكن صعبات المراس، أصبح رأسي يوجعني كلما اجتمعت

بكن. من الأفضل لكن الكفُّ عن إثارة المشاكل. قال ذلك وخرج من

الغرفة، وسمع لدى خروجه سونغ ليان تقول بصوتٍ واهن: «يا إلهي!

كيف أعيش أيامي؟»

فاستدار مجيباً: «اقضي أيامك كيفما تريدن، افعلي ما يحلو لك، إلا أن

تجعلني الخدم يأكلون ورق القش القذر مرّةً أخرى.»

جاءت إلى خدمتها خادمةٌ عجوزٌ تُدعى العمّة سونغ، وكما قالت،

فإنّها تعملُ في خدمةِ عائلةِ تشين منذ أن كانت في عمر الخامسة عشر إلى

الآن، أي أنّها أهدرت تقريباً أكثر من نصفِ عمرها، وهي التي ربّت

في بو، وربّت الأنسة الكبرى التي تدرّس في الجامعة كذلك، ولما رأتها

سونغ ليان فخورّة بأقدميتها في سنّها ووظيفتها، راق لها أن تلقي دعابة:

«إذن فقد ربّيت السيد تشين كذلك؟» إلا أنّ العمّة سونغ لم تفهم دعابتها

وابتسمت وقالت: «بالطبع لا، إلا أنّني شهدتُ زيجاته الأربع، تزوّج

الزوجة الأولى شو رو في التاسعة عشرة، وكان يعلّق على صدره حينها

سبيكة ذهب كبيرة، وكانت ترتدي على صدرها ذهباً يُقدَّرُ وزنه بنصف جين. ثم تزوجَ جوه يون وعلّقَ سبيكةً ذهبيةً صغيرةً بدلاً من الأخرى، بعدها تزوجَ الزوجةَ الثالثةَ مي شان، ارتدى بضعَ خواتم، إلى أن تزوجك فلم يرتدِ أيَّ حُلِيٍّ. إنَّ كلَّ يومٍ يسوءُ عن الآخرِ في عائلةٍ تشين.»

- و طالما كلُّ يومٍ يسوءُ عن الآخر، فلمَ لا تزالين هنا؟

تنهدت العمّة سونغ وقالت:

- لقد اعتدتُ العملَ هنا، وسيكونُ من الصعبِ عليّ اعتيادَ الجلوسِ في بيتي متبطلاً بلا عمل.

أخفت سونغ ليان ضحكتها بيدها وقالت:

- أيتها العمّة سونغ، إذا كان ما تقولينه صحيحاً، إذن فوجودُ العبيدِ في هذا العالمِ حقيقي.

- وهل ذلك غيرُ حقيقي؟ يُولدُ البشرُ أغنياءَ وفقراءَ وعبيداً، إن لم تصدقي هذا فيجب أن تصدقي، ولتري، سأتي كلَّ يومٍ لخدمتك، وإن جاءَ اليومَ وانشقت السماءُ والأرضُ وظللت أنا وأنتِ فقط على قيد الحياة، سأخدمك أنا، وليس أنتِ.

كانت العمّة سونغ امرأةً غبيةً وثرثارة، لكن سونغ ليان لم تُكن لها أي كراهية. وفي أحيانٍ كثيرة كانت تشعرُ بالمللِ القاتل، جالسةً بمفردها تحت ضوء القنديل، ويطولُ بها الوقتُ باحثةً عن شخصٍ تتحدثُ معه، فتستدعيها للجلوسِ معها، خادمةً وسيدةً تتحدثان أحاديثَ تافهةً تفتقرُ إلى المعنى، تمرُّ فترةٌ وتضجُرُ سونغ ليان، وتسمعُ ثرثرتها، وذهنها يشرُدُ إلى

زاوية بعيدة جداً وغريبة، وهي في الحقيقة لا تسمع ما تقوله العمّة سونغ، وترى أن حركة شفيتها الشاحبتين البيضاوين تشبهان تمعج بويضة في رجم، وتعتقد أن هذه الطريقة مضحكة في صرْف وقت الليل، لكنها تعود وتساءل نفسها: «إن لم تقض وقتها هكذا فما عساها تفعل؟» وفي إحدى المرات ذكرت أمر النساء اللواتي ألقين في البئر المهجورة.

قالت العمّة سونغ إن الأخيرة كانت محظية للسيد الأكبر وماتت قبل أربعين عاماً، وقالت إنَّها خدمتها لمدة ستة أشهر.

سألته سونغ ليان:

- كيف ماتت؟

نظرت إليها العمّة سونغ نظرة غامضة وقالت:

- أليست تلك أموراً بين الرجال والنساء؟ لا أستطيع نشر غسيل المنزل القذر خارجاً وإلا سيلومني سيدي.

- تقصدين أنني شخص غريب؟ حسن، اذهبي ونامي.

انتبهت العمّة سونغ إلى تعبيرات وجهها فضحكت وقالت:

- سيدتي هل تودين بالفعل سماع تلك الأمور القذرة؟

- احكي وأنا أسمعك.

- حسن، وماذا في ذلك؟ أخفضت العمّة سونغ صوتها وقالت:

«بائع توفو! لقد كانت في علاقة مع بائع توفو.»

ردت سونغ ليان بصوت خفيض: «كيف لها أن تكون في علاقة مع

بائع توفو؟»

أكلمت العمّة سونغ: «حَسَنٌ، كان الرجلُ بائعٌ توفو ذا صِيَتٍ واسعٍ، وكان طباخُ المنزلِ يطلبه دائماً لتوصيلِ التوفو، هكذا تعرف الإثنان، وكانا في عنفوانِ الشباب، وظلّا يتغازلان غزلاً خفياً حتى أغريا بعضهما.»

- مَنْ أَعْرَى مَنْ أَوْلَا؟

ضحكت العمّة سونغ وقالت:

- مَنْ يَدْرِي! لا أعرف تفاصيلَ هذا الأمر، فإمّا عَضَّها أو هي عَضَّتْه.

ثم سألتها سونغ ليان مرّةً أخرى:

- ولكن كيف علموا أنّهما في علاقةٍ سرّيةٍ؟

- عن طريقِ جاسوس! كان للسيد الأكبر جاسوس. قالت السيدةُ

إنّها تعاني من الصداع وتود الذهاب إلى الطبيب، فأراد أن يستدعيه، لكنها لم توافق، حينها راودته الشكوكُ وأرسل في إثرها أحدَهم. ثم إن كذبتّها لم تكن مُحكّمة. على كلّ حالٍ وصلت إلى محلِّ التوفو، إلى أن حلَّ الظلامُ ولم تخرج. في البداية لم يجرؤ الجاسوسُ على إزعاجِهما، لكن فيما بعد لم يصبح قادراً على تحمّلِ الجوع، فصعدَ وركلَ البابَ وقال: «إن لم تكونا جائعين فأنا جائع.»

وحينَ وصلت العمّة سونغ إلى هذا الجزء من الحكاية انفجرت

ضاحكة وجسدها يتثنى إلى الأمام وإلى الخلف من قهقهتها، لكن سونغ ليان لم تجد الأمرَ مضحكاً وقالت: «يا للقرف!». ثم أشعلت سيجارة وأخذت نفساً وأردفت قائلة: «إِذْنِ بسببِ ذلك قفزت إلى البئر؟» فبان

على وجه العمّة سونغ تعبيرٌ وكأَنَّها تكتُمُ سرّاً خطيراً وقالت بصوتٍ خفيض: «مَن يعلم؟ لقد ماتت في البئرِ على كلِّ حال.»

وقد ضاعف ذلك من رعبها اللامبرر خلال الليل، ولم تجرؤ على إطفاءِ النور عند النوم، فتخيفُها العتمةُ التي تحيطُها من كلِّ مكان، وتكادُ ترى البئرَ المهجورةَ تثبُّ إلى نافذتها، وترى تلك الأيدي الباهتة الطافية على صفحةِ البئر تبسطُ أكفَّها وتأرجحُ، يتقاطرُ منها الماء.

لم يعلم أحدٌ الخوفَ التي تشعرُ به سونغ ليان حيالَ البئرِ المهجورة، لكن شورو تعلمُ أمرَ تركِها المصباحَ مضاءً ليلاً، وقد تحدثت شورو في الأمرِ عدة مرات؛ إذ لم تطفئوا المصابيحَ ليلاً استهدرون مواردَ الأسرةِ حتى لو كانت غنية. إلا أن سونغ ليان أعارت أذناً صماء لما قالته، وأدركت أنَّها سئمت من مشاجراتِ النساء، وأَنَّها ملَّت الدفاعَ عن نفسها، ولا تود أن تكون لها الغلبة، ولم يكن لديها أيُّ اهتمامٍ بالأموالِ بالتافهة، كما أن الأمورَ التي تفكر فيها كانت عشوائيةً وبعيدةً كلَّ البعدِ عمَّا يجري، لدرجة أنها كانت عاجزةً عن ترتيبها في ذهنها، وخطر ببالها أنه طالما لم يكن لديها ما تقوله فمن الأفضلِ ألاَّ تتحدث. أدركت العائلةُ فيما بعد أن سونغ ليان غدت صموتة، وخمّنوا أن السبب وراء ذلك غضب السيد تشين منها.

ثم حان الوقتُ للاحتفالِ بالسنةِ القمريةِ الجديدة، وكانت العائلة مشغولةً في ذبحِ الماشيةِ والخنازيرِ وشراءِ الحاجياتِ استعداداً للعيد، والضجَّةُ تعم الأرجاء. كانت سونغ ليان تجلسُ بمفردها في الغرفة، وتذكّرت فجأةً عيدَ ميلادها، فقد كان بعد عيد ميلاد تشين زوي تشيان بخمسةِ أيامٍ فقط، الثاني عشر من ديسمبر، ولم تذكره إلا الآن، ولم تتمالك

نفسها من الشعور بالحزن الشديد، فأعطت للعمّة سونغ نقوداً وأرسلتها لشراء قطع اللحم المطهو في فخّارٍ وزجاجةٍ من خمِرٍ سيتشوان القوي.

- سيدتي، ما بك اليوم؟

- أريد أن أسكرَ قليلاً. واشتري لي قدح خمِرٍ صغيراً وضعيه على الطاولة.

جلست سونغ ليان محدّقة إلى القدح وكأنها ترى فتاةً صغيرةً قبل عشرين عاماً تحتضنها أمٌ غريبة، ولا تتذكر العشرين عاماً التي تبعت ذلك بوضوح، لا تذكر غير يدٍ والدها الغارقة في الدم والتي رفعها ليداعب شعرها. وإذا أغمضت سونغ ليان عينيها، داهمها خواءٌ ذهنيها، والفكرة الوحيدة التي كانت ساطعةً هي عيد ميلادها. عيد ميلادها! نظرت إلى القدح وما تبقى به من قطراتٍ خمِرٍ بُنّية اللون، وهمست لنفسها: «الثاني عشر من ديسمبر، من ينسى رقماً مميزاً هكذا؟» فيما عدا سونغ ليان، لم يكن ثمة أحدٌ في العالم يعلم أنّ عيد ميلادها هو في الثاني عشر من ديسمبر، فيما عداها، لم يُقَم لها أحدٌ احتفالاً بعيد ميلادها.

مرّ وقتٌ طويلٌ إلى أن عادت العمّة سونغ تحملُ كيساً به كميةً كبيرةً من رئاتٍ وأحشاء الخنازير المقطّعة والمسلوقة في صلصة الصويا. قالت سونغ ليان: «ما هذا؟ من سيأكل هذه القذارة؟» حدّقت العمّة سونغ إليها باستغرابٍ شديدٍ وقالت فجأةً: «لقد ماتت يان أر في المستشفى». فسرت رعدةً في قلبها على الفور، وحاولت تهدئة نفسها وسألتها: «متى توفيت؟» ردّت العمّة سونغ: «لا أعلم، لا أعلم غير أنّها كانت تهتفُ باسمك قبل أن تلفظَ أنفاسها الأخيرة».

شُحِبَ وَجْهَهَا قَلِيلًا وَقَالَتْ: «وَلَمْ تَهْتَفْ بِاسْمِي؟ لَعَلَّنِي مَن قَتَلَهَا؟»

فَرَدَّتِ الْعَمَّةُ سَوْنِغَ: «لَا تَغْضَبْنِي، هَذَا مَا سَمِعْتَهُ لَيْسَ إِلَّا الْحَيَاةُ
وَالْمَوْتُ مِنْ شَأْنِ الْقَدْرِ، لَا دَخَلَ لِسَيْدَتِي بِهِ، لَا لَوْمَ عَلَيْهَا».

عَادَتْ سَوْنِغَ لِيَانَ وَسَأَلَتْهَا: «وَأَيْنَ جِثْمَاتُهَا الْآنَ؟»

«أَخَذَهَا أَهْلُهَا إِلَى مَسْقَطِ رَأْسِهَا، وَكَانُوا يَتَحَبَّبُونَ انْتِحَابًا بِشَيْرِ الشَّفِيقَةِ،

مَسَاكِينِ».

فَتَحَتِ سَوْنِغَ لِيَانَ زَجَاجَةَ الْخَمْرِ وَتَنَشَّقَتْ رَائِحَتَهُ وَقَالَتْ بَفْتُورَ:

«لَيْسَ ثَمَّةُ شَيْءٍ يُبْكِي عَلَيْهِ، الْحَيَاةُ كَرَبٌّ وَشِقَاءٌ، الْمَوْتُ يَطَهِّرُ الْمَرْءَ، الْمَوْتُ
أَفْضَلُ مِنَ الْحَيَاةِ».

وَإِذْ كَانَتْ بِمَفْرَدِهَا تَشْرَبُ الْخَمْرَ سَمِعَتْ بِشَكْلِ مَبْهَمٍ صَوْتِ

خَطَوَاتِ مَأْلُوفَةٍ، وَرُفِعَ السِتَّارُ وَدَخَلَ رَجُلٌ أَسْمَرَ. أَدَارَتْ سَوْنِغَ لِيَانَ

وَجْهَهَا وَحَدَّقَتْ إِلَيْهِ فَبَدَتْ طَوِيلَةً، إِلَى أَنْ اسْتَطَاعَتْ تَبَيِّنَ مَلَامِحَهُ وَعَرَفَتْ

أَخِيرًا أَنَّهُ السَّيِّدُ فِي بُو، فَغَطَّتِ الْخَمْرَ وَالطَّعَامَ دَفْعَةً وَاحِدَةً بِمَفْرَشِ الْمَائِدَةِ

كَيْ لَا يَرَاهُمَا، لَكِنَّهُ كَانَ قَدْ رَأَى كُلَّ شَيْءٍ وَهَتَفَ: «حَسَنٌ حَسَنٌ، تَشْرَبِينَ

الْخَمْرَ».

سَأَلَتْهُ سَوْنِغَ لِيَانَ: «لِمَ عَدْتِ؟» قَالَ إِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَنْزِلِهِ يَوْمًا

مَا. وَقَدْ بَانَ عَلَيْهِ تَغْيِرَاتٌ جَمَّةٌ مِنْذُ أَنْ تَرَكَ الْمَنْزَلَ، اسْمَرَّ وَجْهَهُ، وَمَتَّنَ

عُودَهُ قَلِيلًا، وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ التَّعَبِ وَالْإِنْهَاكِ، كَمَا لَاحَظَتْ سَوْنِغَ

لِيَانَ هَالَاتِ زُرْقَاءَ حَوْلَ عَيْنَيْهِ، وَشَعِيرَاتِ حَمْرَاءَ دَقِيقَةً فِي مَقْلَتَيْهِ، نَمَّا جَعَلَهُ

شَدِيدَ الشَّبهِ بِوَالِدِهِ.

- لم تشرين؟ هل تفضين همومك بالخمير؟
- هل يمكن نفّس الهموم بالخمير؟ إنني أحتفل بعيد ميلادي.
- عيد ميلادك! كم عمرك؟
- لا يهم، فأنا أعيش كل يوم بيومه. هل تود أن تشرب معي كأساً وتتمنى لي عيد ميلاد سعيداً؟
- سأشرب في صحتك، وأتمنى أن تعيشي تسعة وتسعين عاماً.
- هراء، لا أريد أن أعيش طويلاً هكذا، ثم خذ كلامك اللطيف وقله لوالدك.
- حسنٌ كم تريدن أن تعيشي؟
- حسب الرغبة، الأمر بسيط، متى وددت الكف عن العيش فلن أعيش.
- سأشرب كأساً آخر نخب أن تعيشي أطول قليلاً، إذا مت فلن أجد من أتحدث معه في هذا المنزل.
- ظّل الإثنان يشربان الخمر في هدوء، ثم تطرقا إلى أمر تجارة التبغ.
قال في بو:
- لقد ضاع كل شيء، لست تاجراً ماهراً، لم أجن مالاً فحسب، بل خسرتُ آلاًفاً كذلك، لكنني استمتعتُ بوقتي للغاية.
- حسنٌ، أمورك تجري على ما يرام، ما الذي يقلقك؟
- سأخبرك لكن لا تخبري والدي، وإلا سيمطرني بنصائحه.

- أنا لا أكلف نفسي عناء التدخل في شؤونكم، ثم إنه يراني الآن وكأنه يرى خرقةً بالية بالكاد يلقي نظرةً إليّ، فكيف أخبره أنك السبب؟
أثارها الخمرُ وفقدت هدوءها، وكان جلياً أن المقصودَ بمشاعرها كان في بو، وكان بالطبع مدركاً لذلك.

تفتحت في فؤاده أزهارٌ ناعمة، وتضرج وجهه خجلاً، من ثم فكّ من حزامه الجلدي جراباً زاهي الألوان مزيناً برسم تنينٍ وعنقاءٍ وأعطاه لها. «أحضرته لك من يونان من أجل عيد ميلادك». ألقّت سونغ ليان نظرةً إلى الجراب وابتسمت ابتسامةً غريبةً وقالت: «النساء فقط من يهدين الجرابات إلى الحبيب وليس العكس!» أحسّ في بو شيء من الإحراج، وسحب الجراب من يدها فجأة وقال: «أعيديه إذن، لقد أهداه لي أحدهم على كلِّ حال».

قالت سونغ ليان: «حسنٌ، مشاعرٌ كاذبة، تأتيني بهدايا الآخرين وتكذب عليّ، وإذا قبلت الهدية ألن أكون غير مهذبة غير متحضرة؟» علّق في بو الجراب في حزامه من جديد وقال بنبرة يشوبها الحرج: «لم يكن في نيتي أن أهديه لك في الأصل، كنتُ أخدعك». بدا وجهها متجهماً بعض الشيء وردت: «لقد اعتدتُ على الخداع، الجميعُ يخدعني، وأنتَ تخدعني أيضاً». أخفض في بو رأسه ولم ينطق بكلمة، وظلّ بين حينٍ وآخر يسترُق نظراتٍ إليها. وفجأة سألتُه سونغ ليان: «مَن أهداك الجراب؟» هزّ في بو ركبتيه عدة مراتٍ للأعلى وللأسفل وردّاً قائلاً: «لا شأنٌ لك».

(8)

جلس الإثنان يشربان الخمر بهدوء وكأنَّ عاطفة الحبَّ تبخرت بينهما. أدارت سونغ ليان قدح الخمر بين أصابعها ونظرت إليه حيث كان جالساً قبالتها خافضاً رأسه، وشعره الكثيف الأسود يلمع، ورقبته مستقيمةً بمتانةٍ وترْفُوعٍ، ولاحت عروقٌ زرقاءٌ داكنةٌ تخفقُ أمامَ عينيها. كان قلبُها مفعماً بحزنٍ شديد، واجتاحتها رغبةٌ غريبةٌ كالريحِ فاضت من جسدها وتركتها عاجزةً عن التقاطِ أنفاسِها. ولاحت في مخيلِها مداعبةٌ مميَّ شان والطبيب بأرجلِها تحت طاولةِ الماجيانغ، فنظرت سونغ ليان إلى قدميها المشوقتين، كانتا تشبهان سهلين قليلي الانحدار ورمال ناعمة تنزلق نحو الأسفل بحرارةٍ ودفءٍ وتقربٍ من الهدف، الهدف، ساقِي في بو، ركبتيه، وقدميه، وقد أحسَّت بأعضائه هذه الآن. غطَّت عينيها غشاوة، وفتحت شفيتها بوهنٍ وحركتها ببطء. وسمعت أصواتَ أشياءٍ تتكسرُ في الهواء، أو ربما هذه أصواتٌ قادمةٌ من أعماقِ جسدها ليس إلَّا.

وإذ رفعَ في بو رأسه، ثبَّت نظره إلى عيني سونغ ليان التي تموران بالشبق، فظلَّ جسده، ولا سيما قدماه، في وضعِ السكون. لم يتحرك في بو، وأغمضت سونغ ليان عينيها، وسمعت صوتَ تنفُّسِها وقد انقسم إلى

صوتين حادٍ وضعيفٍ واقتربت منه بقدميها في انتظارٍ أن يحدث شيءٌ ما.

وبدا وكأنَّ دهرًا مرَّ عليهما، ضمَّ فيَّ بو ركبتيه، ومالَ على الكرسي
وكانه هُزِمَ وقال بصوتٍ أجش: «هذا ليس صحيحًا.» أفاقت سونغ ليان
وكأنَّها أفاقت من حلم: «ماذا تقصد؟» رفع فيَّ بو يديه ببطءٍ وضمَّها وقام
بتحية وقال: «لا أستطيع، لا زلتُ خائفًا.» كان وجهه يتلوَّى ألمًا. لا زلتُ
أخافُ النساء. النساء مخيفاتٌ جدًّا.» ردَّت سونغ ليان: «لا أفهمك.» فرك
فيَّ بو وجهه وقال: «سونغ ليان أنا معجبٌ بك، لا أخدعك.» قالت سونغ
ليان: «معجبٌ بي وتعاملني هكذا؟»

غصَّ فيَّ بو بدموعه ولكنه تمالك نفسه، هزَّ رأسه وتجنَّب النظرَ
إليها وقال: «لن أتغير، إنَّ الرَّبَّ يعاقبني، أجيالُ الرجالِ من عائلةٍ
تشين يعشقون النساء، إلَّا أنا، منذ صغري أراهن مخيفات، أنا أخافُ
النساء، خاصةً نساء هذه العائلة، إلَّا أنتِ، ومع ذلك ثمة ما يمنعي، هل
تفهمين؟». كانت دموعها قد انهمرت على خديها وأدرات وجهها وقالت
بصوتٍ خفيض: «نعم أفهمك، لا داعي لأن تشرح الأمر، فأنا لا أملك
الآن، أنا جادة، لا أملك مطلقًا.»

بدأت آثارُ ثَمَلتها بعد مغادرةٍ فيَّ بو، كان وجهها يتضرَّجُ حمرةً،
وترقصُ بذراعين مفتوحتين في الحجرة وتكسرُ الأشياء. دخلت العمَّة
سونغ لتهدئها، إلَّا أنها لم تجد حلاً غيرَ أن تستدعي السيد تشين. وما أن
دخلت الغرفةَ حتى أسرعَت سونغ ليان واحتضنته وأنفأس الخمرِ تفوحُ
منها وهي تهذي بكلامٍ غيرِ مفهوم. سأل السيد تشين العمَّة سونغ: «لم
شربت؟» ردَّت العمَّة: «وكيف لي أن أعرف؟ فهل ستخبرني إن كانت في

أرسل تشين زوي تشيان العمة سونغ لتأتي بشو رو وتجلب معها دواء التخلص من مفعول الكحول، فصرخت سونغ ليان: «لا تذهبي، من غير المسموح إخبار تلك الساحرة العجوز.» دفعها تشين زوي تشيان إلى السرير باشمئزاز شديد وزعق: «انظري إلى هيتيك المجنونة، ألا تحشين أن تكوني أضحوكة.» قفزت سونغ ليان وتعلقت برقبته وقالت: «سيدي فلتبق معي الليلة، لا أحد يجنبي، أحبني يا سيدي!». ردّ مكرهاً: «وكيف أحبك وأنت هكذا؟ أن أحب كلباً أفضل!»

وما أن سمعت شو رو أن سونغ ليان ثملت حتى جاءت على الفور، وقرأت على الباب بعضاً من كلمات أميتابها⁽¹⁾، ثم دخلت وفصلت بين الإثنين. سألت تشين زوي تشيان: «تريد أن تعطيه الدواء رغماً عنها؟» أو ما تشين زوي تشيان برأسه، وإذ ضغطت قبضت شو رو على فمها في محاولة لإعطائها الدواء دفعتها سونغ ليان دفعةً أفقدتها اتزانها. فزعقت شو رو: «افعلوا شيئاً تجاه تلك المجنونة ولقنوها درساً.» أمسك تشين زوي تشيان والعمة سونغ ليان، وحين صبّت شو رو الدواء في فمها، بصقته سونغ ليان على وجهها.

قالت شو رو: «لم تترك هذه المجنونة، سوف تثير المشاكل!» طوّقها تشين زوي تشيان من خصرها، لكن سونغ ليان تراخت عند جسده وقالت: «سيدي لا ترحل، سأفعل ما تريده اليوم، سألعقك، سأداعبك، أي شيء توده، لكن لا تتركني!» استشاط تشين زوي تشيان غضباً إلى حدّ

1. أميتابها: بوذا من أصل صيني وهو واضع أسس بوذية الأرض النقية المنتشرة في شرق آسيا.

عجزَ فيه عن الحديث، ولم تستطع شو رو وسامع المزيد، واندفعت صوبها وشفعتها وقالت: «وضيعة وقحة، انظر كيف دللتها!»

سادت الفوضى في الجناح الجنوبي، وهرع الجميع لمشاهدة ما يجري. طلب تشين زوي تشيان من العمّة سونغ أن تمنع الناس من الدخول. فقالت شو رو: «لقد جعلت من نفسك أضحوكة، وتخشى أن يرى الناس؟ لنرى بأيّ وجه ستقابل الناس فيما بعد!» ردّ عليها: «لا تطلي الحديث، أرى أنك لا بد أن تتناولي بعضاً من ذلك الدواء أيضاً.» غطّت العمّة سونغ فمها محاولة بكلّ جهدها أن تمنع نفسها من الضحك وسارت إلى الرواق لتحرس الباب، ورأت عدداً كبيراً يتلصص من النوافذ لرؤية ما يجري، كما رأت السيد في بويديس يديه في جيبي بنطلونه متجهاً صوبهم. وفي اللحظة التي كانت تفكر فيها فيما إذا كانت ستسمح له بالدخول أم لا، استدار وعاد أدراجه.

تساقطت ثلوجٌ كثيفة، غطّت الحديقة الغارقة في الشتاء الموحش بطبقة بيضاء كغراء الأرانب، ممّا أكسب الأغصان والأفاريز لمعاناً وكأنتها نُحِتت بشكلٍ بارع. وكان عددٌ من أطفال العائلة قد استيقظ مبكراً وهرع لصنع رجل الثلج، ثم مضى الأطفال يلاحقون بعضهم البعض خارج نافذة سونغ ليان ويتراشقون بكرات الثلج، كما أنّها سمعت بكاء فيّ لان لدى سقوطه على الأرض. وكان ثمة ضياءٌ ثلج ينشر ألواناً عبر النافذة توخر العينين. وكان ثمة صوت ساعة حائط لن يخبو أبداً. كلُّ شيءٍ حقيقيٍّ وملموس. شعرت وكأنتها في الجنة، لم تصدّق أنّها حيّة، وأنّها ستقضي يومها كما اعتادت.

حَلَمَت سونغ ليان بيان أر المتوفاة، كانت الميتة امرأة صلعاء، تقفُ في الخارجِ وتدفَعُ نافذتها، تدفعُها مرّةً تلو الأخرى. لم تكن سونغ ليان خائفة. كانت تترقبُ انتقامها الوحشي. استلقت بسكون وفكّرت في النافذة التي على وشك أن تُفتح. دخلت يان أر بهدوء، تضعُ غطاءً للرأس وشعرها مُصَفَّفٌ على هيئة كعكة وتبدو كسيدة ثرية.

سألتها سونغ ليان: «من أين اشتريتِ غطاءَ الرأس؟»

ردت يان أر: «لدى ملك الحجيم الكثير منه.» بعدها سحبت من شعرها دبوساً طويلاً وغرزته في صدرِ سونغ ليان. أحسّت بوخزة الألم، وسقطت في الظلام بسرعة فائقة. كانت واثقةً من موتها، أنّها ماتت حقاً، وأنّ موتها دام لوقتٍ طويل، كأنه دام عقوداً.

ارتدت ملابسها وجلست على السرير، غير مصدقة أنّ موتها كان حلماً. ولمحت دبوسَ شعرٍ طويلٍ مغروزاً في اللحافِ المطرّز، فوضعت في راحة يديها الباردة كالثلج. هذا أيضاً حقيقي، وليس حلماً. حَسَنٌ، إذَنْ كيف أنا حيّة! وأين يان أر؟

انتبهت إلى النافذة التي كانت نصفَ مغلقةٍ كما كانت في الحلم، وعبرها يتسرّبُ الهواءُ المنعش، لكن سونغ ليان استشعرت ما بقي من أنفاس عالقةٍ ليان أر الميتة أعلى النافذة. تساقط الثلج، ولم يعد يُرى من العالم إلا نصفه، أمّا النصف الآخر فقد اختفى، وانحى بهدوء، ولعل هذا موتٌ منقوص. وفكّرت سونغ ليان: لم أموت ويتوقف موتي في منتصفه؟ أمرٌ عجيبٌ بحق، أين النصفُ الآخر؟

جاءت مي شان من الجناح الشمالي ترتدي معطفاً من فرو السمور، فبدت وهي تعبرُ الثلجَ الأبيضَ في ذورةِ الجمالِ والأناقة، وأكسبت الطقْسَ لوناً مختلفاً. سارت صوبَ نافذةِ سونغ ليان وهتفت: «عفرينةُ الخمر، هل أفقتِ؟» ردَّت سونغ ليان: «هل ستخرجين في هذا الثلج الكثيف؟»

ضربت مي شان برفق على النافذة وقالت: «وماذا في ذلك؟ طالما يمكنني الاستمتاع بوقتي فسأخرج حتى ولو كان الجو بارداً يوخز كالسكاكين.» وإذ استدارت لتمضي في طريقها، لا تدري سونغ ليان لمْ هتفت قائلة: «انتبهي لنفسك!» فالتفت مي شان وابتسمت لها ابتسامةً عذبة، ممَّا ترك في نفسها أثراً عميقاً. وفي الحقيقة، كانت هذه المرَّة الأخيرة التي رأت فيها سونغ ليان ابتسامةً مي شان الساحرة.

بعد الظهر، حمل خادمان مي شان وعادا بها إلى المنزل تتبعهم جوه يون وهي تقضم البذر. كان الأمرُ بسيطاً للغاية: جوه يون ضَبَطَت مي شان والطبيبَ في السريرِ في فندق، وألقت ملابسها في الشارع وزعقت: «عاهرة! كيف أفلت من يدي!»

في ذلك اليوم رأتها سونغ ليان تخرج ثم تعود من جديد، لكنها لم تكن مي شان التي رأتها خارجة في أبهى زينتها، فقد أعيدت إلى الجناح الشمالي مشعثة الشعر، عينيها تتأججان غضباً، وتشتم كلَّ مَنْ يسحبها.

وشتمت جوه يون: «سأعيشُ لأشقَّ جسدك وأخرج قلبك وأطعمه للكلاب.» لم ترد جوه يون وظلَّت تقضمُ البذر. والتقطت فيَّ لان فردةً حذاءً والدتِه وركضت في إثرها صارخاً: «الحذاء، الحذاء!» لم تلمح سونغ ليان تشين زوي تشيان. فيما بعد وصل إلى الجناح الشمالي ودخل بمفرده،

وأوصدت بوابة الجناح.

لم تكن سونغ ليان في مزاجٍ لتقصي ما يجري هناك، فجلست بقلبٍ مُثقلٍ، تنصتُ بتركيزٍ إلى تحركات مي شان، مدفوعةً برغبةٍ شديدة في معرفة كيف سيتصرف تشين زوي تشيان معها. كان الجناح غارقاً في الصمت، وثمة خادم يقف أمام البوابة يهزُّ مجموعة مفاتيح، فُتحت البوابة، ثُمَّ أُغلقت، خرج تشين زوي تشيان، ووقف هنيهة يتطلع إلى منظرِ الحديقةِ المغطاةِ بالثلجِ الأبيض، ثُمَّ أشاح بيده، واتجه صوب الجناح الجنوبي.

- يا لها من ثلوج! الثلج المبارك يبشر بحصادٍ جيد! قال تشين زوي تشيان. كان أكثر هدوءاً ممَّا توقعت سونغ ليان، حتى أن ثمة نوعاً من سكونِ البالِ الحقيقي يبدو في أدائه. وإذا اتكأت سونغ ليان على السرير وحدقت مباشرة إلى عينيه، لمحت نظرة خبيثة، ممَّا أوقع الرعبَ في نفسها.

- كيف ستتصرفون مع مي شان؟

سحب عودَ أسنانٍ عاجياً ونظفَ أسنانه وقال:

- ليس ثمة ما نفعله من أجلها، فهي تعلم ما يجب فعله.

- اغفروا لها هذه المرة.

ضحك تشين زوي تشيان وقال:

- قُضي الأمر.

ظَلَّت مضطربةً وساهرةً طوالَ الليل، منصتة إن كان ثمة أي حركة

تحدث في الجناح الشمالي، وتفكّر في أمورٍ تخصها، وحين تفكّر في نفسها، يتحوّل كلُّ شيءٍ في ذهنها إلى صفحةٍ بيضاء، بالضبط كما الثلج خارج نافذتها، ما بين بين، نصفه ملموس، والنصف الآخر تخيلاتٌ ذائبة. حلّ منتصفُ الليل، ولم تصدق سونغ ليان ما تسمعه، فقد سمعت غناءً مميّ شان، حبست أنفاسها وأنصتت، كانت مميّ شان تغني بالفعل، كانت تغني أغنيتهما من أوبرا بكين في ليلةٍ تعاني فيها كهذه الليلة.

تلك المرأة الجميلة التي عاشت حياةً بائسة

وانتهى زواجها السعيد

وأصبحت بلا حبيبٍ أو صديق

أضفت على الزهورِ النائحةِ والقمرِ الباكي حزناً على حزن

دموعها على وسادتها تنهمرُ مع حباتِ المطر

حباتِ المطرِ التي تنهمرُ غزيرةً طوال الليل

وتلك الوسادة الناعمة

لا تعوّض الوحدةَ وبرودةَ النصفِ الآخرِ من الفراش.⁽¹⁾

كانت سونغ ليان تتقلبُ في فراشها طوال الليل، والمحيطُ غريبٌ

1. أوبرا مقتبسة من (حكاية هوا شياو يو) أحد الأعمال الأدبية في عصر تانغ، وتحكي قصة «لي يي» أحد السادة والمحظية «هوا شياو يو» وقد وقعا في الحب، ولما كانت المحظية تعلم أنها لا يمكن أن تكون زوجته، فقد طلبت منه أن يعيش برفقتها فترة من الزمن، لكنه أقسم ألا يفترق عنها، إلا أنه بعد فترة خضع لرغبة والدته التي رتبت له زيجة من إحدى الفتيات، وهجر «هوا شياو يو» لتلازم فيها بعد فراش المرض وتتوفى بعد أن يأتيها «لي يي» وتواجهه بعدم إخلاصه لها.

في الحديقة الخلفية، من ثم سُمِعَ صوتٌ فيّ لان، وكأنّ أحداً أخذه من الجناح الشمالي. فجأةً لم تعد سونغ ليان تفكّر في مي شان، بل لاحت في خيالها قدماها تداعب قدمي الطبيب تحت طاولة الماجيانغ، والأقدام الأربعة تتأرجح أمامها، وأحسّت بشكلٍ غامضٍ أنّها تشبه ورقةً خفيفةً طيّرتها الريح. «يا لهما من مسكينين». همست سونغ ليان لنفسها، وسمعت صياحاً أوّل ديكٍ في الخارج، بعدها غرق العالمُ في الصمت. وخطر ببالها: «سأموتُ مجدداً. وستأتي يان أر وتدفع النافذة مجدداً.»

سونغ ليان دائخة، تغرق في حالةٍ بين الصحو والنعاس. هذا وقت الفجر، في الخارج وقعُ خطواتٍ عشوائيةٍ أزعجتها، وكانت الخطوات قادمةً من الجناح الشمالي إلى عريشة الوستاريا. رفعت سونغ ليان الستارة، ورأت ظلالاً تتحرك في الظلام وترفعُ شخصاً ما صوبَ العريشة.

كانت تعلم أنّها مي شان. كانت مي شان محمولةً صوبَ العريشة، تحاولُ فكّ وثاقها بكلّ جهدٍ وبصمّتٍ لأنّها كانت مُكمّمة. فكّرت سونغ ليان ماذا سيفعلون بها؟ لم يحملون مي شان إلى هناك؟ سارت المجموعة إلى البئر المهجورة وانهمكت في أمرٍ ما، ثمّ سمعت سونغ ليان صوتاً ثقيلاً مكتوماً، وكأنّ البئر أصدرت رذاذاً عالياً صافياً. ثمّة من أُلقي هنا. لقد أُلقيت مي شان في البئر.

مرّت دقيقتا سكونٍ قبل أن تُطلق سونغ ليان صرخةً الفزع تلك. اقتحم تشين زوي تشيان الحجرَ فوجدها تقف عارية القدمين، وتجذب شعرها بشدة. صرخت بحدة، وأظلمت عيناها، وأصبح وجهها أكثر شحوباً. وضعها تشين زوي تشيان في السرير، وأدرك تماماً أنّ هذه نهاية

سونغ ليان، وأنها لم تعد تلك الطالبة الطيبة، فغطّأها وضغط اللحاف على جسدها وقال: «ماذا رأيت؟ ماذا رأيت بالضبط؟»

- قتلة! قتلة!

- هراء، ماذا رأيت؟ لم تري شيئاً. لقد جُننتِ.

في صباح اليوم التالي انتشر خبران مفاجئان من منزل عائلة تشين. فقد تناقل السكان، بداية من الطبقة العليا من السيدات والسادة، إلى عامة الناس أخبار عائلة تشين، أن الزوجة الثالثة مي شان انتحرت بأن ألقت بنفسها في البئر لشعورها بالخزي والعار، وأن الزوجة الرابعة سونغ ليان فقدت عقلها. ورأى الناس أن انتحار مي شان منطقيٌّ ومعقول، فليس ثمة نهاية سعيدة للزاني والزانية، لكن ماذا عن سونغ ليان الطيبة الهادئة الشابة؟ قال أحدهم على علم بالقصة: «الأمر بسيط، ثعلبٌ يبكي شبيهه!»

في ربيع العالم التالي، تزوّج تشين زوي تشيان الزوجة الخامسة وين تجو. كانت في البداية وما أن تدخل المنزل، ترى امرأةً تجلسُ ببلادة تحت عريشةٍ الوستاريا، أو تراها أحياناً أخرى تدورُ حول البئر المهجورة وتتحدث إلى البئر. وبدت لها سونغ ليان حسناءً راقيةً، ومهندمة، ولا تبدو كالمجنونات، فسألت شخصاً ما إلى جانبها:

- من هذه المرأة؟

- لقد كانت الزوجة الرابعة، فقدت عقلها.

- إنَّها غريبةٌ حقاً. ماذا تقول للبئر؟

كَّرَرَ الشَّخْصُ مَا تَقُولُهُ سَوْنَعُ لِيَانَ:

- لَنْ أَقْفِزَ، لَنْ أَقْفِزَ. تَقُولُ إِنَّهَا لَمْ تَتَحَرَّ قَفْزاً فِي الْبُئْرِ.

تَقُولُ سَوْنَعُ لِيَانَ إِنَّهَا لَمْ تَتَحَرَّ قَفْزاً فِي الْبُئْرِ.

يارا المصري

مترجمة مصرية درست اللغة الصينية في كلية الألسن جامعة عين شمس في القاهرة وفي جامعة شانغونغ للمعلمين في مدينة جينان بالصين، نشرت قصصاً ونصوصاً شعرية ودراسات مترجمة عن اللغة الصينية إلى اللغة العربية في مجلات وصحف منها «مجلة العربي، جريدة الأهرام، المحلق الثقافي لجريدة الاتحاد، أخبار الأدب» وغيرها من الدوريات الثقافية العربية. شاركت في مؤتمر المترجمين لترجمة الأعمال الأدبية الصينية الذي عقد في الصين أغسطس 2016، وشاركت في «الملتقى الدولي للترجمة - الترجمة مشروعٌ للتنمية الثقافية» في القاهرة في الفترة 23 - 24 نوفمبر 2016. تجيد اللغات العربية والصينية والإنجليزية.

فائزة بالمركز الأول في مسابقة جريدة أخبار الأدب للشباب في الترجمة 2016 عن ترجمتها لرواية «الذوآقة» للكاتب الصيني «لو وين فو»

أعمال منشورة:

- «العظام الراكضة» المؤلفة: «آشه»، مجموعة قصصية، بيت الحكمة والإعلام في الصين 2015.
- «الفرار في عام 1934» المؤلف: سوتونغ، رواية. دار الصدى / مجلة دبي الثقافية، الطبعة الأولى 2015.
- «رياح الشمال» المؤلفة: بينغ يوان، مجموعة قصصية. دار الحكمة للإعلام والنشر 2016.
- «الذوآقة» المؤلف: الكاتب الراحل لو وين فو، رواية. سلسلة الجوائز التابعة للهيئة المصرية العامة للكتاب 2016.
- «أحتضن نمرأ أبيض وأعبرُ المحيط» المؤلف: الشاعر الراحل خاي زي، مختارات شعرية. دار النسيم بالتعاون مع مجموعة النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين 2017.

SU TONG

WIVES AND CONCUBINES

苏童

妻妾成群

للبر في التراث الإنساني دالاتٌ متعددة، منها ما يتصلُّ بالماء حيث الحياة، وما يتصلُّ بالخوف من المجهول الذي قد ينتهي بالانتقام والعقاب والموت، والدلالةُ الأخيرةُ هي ما يبني عليها سوتونغ روايته (زوجات ومحظيات) وهكذا تشكّل البرُّ خلفيةً المصائر الفادحة لأبطال هذه الرواية، وهنَّ نساءٌ حكم عليهن المجتمع الصيني الإقطاعي، في فترة أمراء الحرب الشماليين قبل الحرب الأهلية الصينية بالحياة تحت تقاليد قاسية.

يقول أحد القراء عن (زوجات ومحظيات) إنها «قصة رجل دمّر حياة مجموعة من النساء، وأوجد جيلاً من المآسي».

تكشف أحداث الرواية عن الصورة المرعبة لعادات الصين الإقطاعية حينها والتي قضت على إنسانية البشر وعطفهم على الآخر. كما تكشف في جانب آخر عن المكائد والصراعات الخفية منها والظاهرة التي تدور بين النساء عادة في وضع اجتماعي كالوضع الذي تطرحه الرواية.

نشرت الرواية عام 1991، وحولت إلى فيلم بعنوان (ارفعوا المصابيح الحُمْر) في العام ذاته من إخراج جانغ ييمو، والذي رشح بدوره إلى جائزة الأوسكار في دورتها الرابعة والستين. كما أدرجت الرواية ضمن قائمة أفضل مائة رواية صينية في القرن العشرين.

يارا المصري

زوجات
ومحظيات

ISBN: 978-1-966463-32-0



9 781988 483320

BNUP
منشور للنشر والتوزيع
House Publishing & Distribution